حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
دورية تصدر كل شهرين
www.hiragate.com
السنة الثانية عشرة
ربيع الثاني ١٤٣٨هـ / (يناير - فبراير) ٢٠١٧م

ما وراء الباب

تقدَّمْ، لا تتردَّدْ،
على الباب واقفًا لا تظلّ،
مرعوبًا مِنْ قِدَمه لا تَبْقَ،
فلو ولجتَ وجدتَ:
روحًا بالعظمة محفوفًا،
وبسرمدية الجِدَّة موصوفًا..
خطواتِك الأولى اخْطُ،
فإنْ خطوت، نَفْسَكَ وجدْتَ،
ووجدانَك التقيتَ،
وبأصول بنْيانك تعرَّفْتَ،
فأنِستَ واطمأننتَ،
وبالبشرى حظيت.
***

٢ عالم المسلمين
فتح الله كولن
١٣ مفهوم الوسطية (٢)
د. سعيد شبار
٤٤ الإعلام الجديد والشباب
د. العطري بن عزوز

أبطال الأمل

"لقد عشنا حتى الآن على أمل قدوم هؤلاء الأبطال، وسنبقى في انتظار قدومهم ما حيينا".

بهذه العبارة أنهى الأستاذ فتح الله كولن مقاله الرئيس المعنون بـ"عالم المسلمين"؛ ألقى فيه نظرة موسّعة على الحالة المزرية التي يعيشها عالم المسلمين منذ مدة ليست بالقصيرة على كافة المستويات، وشخّص الداء تشخيصًا دقيقًا.. ثم بين أن النجاة من هذه الوهدة السحيقة -التي سقط فيها هذا العالم- لن تتم إلا على أيدي أبطال ذوي مواصفات مخصوصة ذكرها تفصيلاً في المقال، وهؤلاء هم أبطال الأمل الذين تحيا الأمة في انتظار قدومهم.

ويتابع أديب الدباغ بريشة قلمه السحرية رسم صورة كلية للفرح الإنساني.. فبعد "أفراح القلوب" في العدد السابق، تأتينا "أفراح العقول" في هذا العدد؛ لتتجلى من خلالها الرؤية الكلية لفكر الأستاذ كولن قلبًا وعقلاً.

أما الذين قرأوا الحلقة الأولى من مقال "مفهوم الوسطية في تقويم الفكر واستقامة السلوك"، فهم على موعد في هذا العدد مع الحلقة الثانية من المقال للمفكر الكبير سعيد شبار، يُحكِم فيه المصطلحات ويبين الأسس الوسطية التي استقام عليها أمر هذا الدين.

لقد كان لابن سينا أياد بيضاء على الإنسانية في عالم الطب والصيدلة فضلاً عن شهرته العريضة في الفلسفة، أما تميزه في الكيمياء فجانب آخر من جوانب تميزه، يكشف عنها بركات محمد مراد في هذا العدد.

إن النظر في الأنفس والآفاق دعوة ربانية حضَّنا عليها القرآن الكريم، وتعمل "حراء" على تفعيلها واقعًا مسطرًا في أعدادها عبر سلسلة من المقالات المتميزة في هذا الصدد، منها في هذا العدد مقال يتأمل في حاسة الشم لدى الإنسان بعنوان "كيف يميز الأنف بين الروائح؟"، وآخر يتأمل في بعض مخلوقات الله من الطيور بعنوان "الزاحف والجزار" لعبد الهادي العوفي، فاقرأوا وتأمّلوا.

وكما عودتنا "حراء"، يطوف هذا العدد طوافًا واسعًا في آفاق الفكر، فإلى جانب مقال "الوسطية" السابق ذكره، نجد عبد الإله بن مصباح يحدثنا عن "التأسيس القرآني للوعي البيئي". كما نجد عبد الوهاب بوخلخال يعدد لنا "المنهاج النبوي في بناء الشخصية الحضارية". ويذكر لنا أيمن حسن حجاب بعضًا "معالم الحضارة الإسلامية". ويصحح الشريف حاتم العوني الأخطاء التي يقع فيها النصوصيون الذين يطالعون النص مجردًا عن سياقاته الخاصة والعامة، وذلك في مقاله المعنون بـ"رد الاستدلال المجتَزأ إلى الاستدلال الشامل". أما مصطفى الزباخ ففي قراءته لمنظومة الفكر النهضوي عند المفكر محمد فتح الله كولن -الذي وصفه بأنه مهندس البناء الحضاري للعالم الإسلامي بامتياز- فقد بيَّن أن مادة فكره ترتكز على ثلاثة أشكال من الوعي؛ هي الوعي بالخصوصيات، والوعي بالتحديات، والوعي بالاحتياجات. وفي مزيج ساحر بين الأدب والفكر يستعرض فؤاد البنا في مقاله "الفصاحة.. ظاهرة صحية أم مرضية" لوامع أفكاره في رداء عابق بشذى البيان والبراعة والإبداع، منافحًا عن ضرورة البيان ولزوم الفصاحة للمتصدرين للتبليغ والإرشاد.

ولم تنس المجلة نصيب قرائها من فنون الأدب -شعرًا ونثرًا وقصة- وقضايا الفن والثقافة والتاريخ والحضارة، هذا إلى جانب القضايا التربوية الأخرى التي تتناول مشاكل مناهجنا التعليمية، وتقترح لها عددًا من الحلول بغية الارتقاء بتلك المناهج.

وأخيرًا فالشكر لله أولاً على تواصل مسيرة "حراء" الفكرية والعلمية والثقافية والتربوية حتى هذا العدد، ثم لإسهامات نخبة الكتّاب والمفكرين والأدباء الذين أثروا أعدادنا بقرائح أفكارهم، وبنوادر آدابهم، وبطريف كتاباتهم، ثم لقرائنا الأعزاء من مختلف أنحاء العالم، الذين كانوا داعمين لنا على الدوام بالتواصل والتعليق والاقتراح.. فلهم جميعًا أبلغ الشكر وأوفى التقدير والاحترام. هذا وبالله التوفيق. ■

المحتويات

عالم المسلمين / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
التأسيس القرآني للوعي البيئي / د. عبد الإله بن مصباح (قضايا فكرية)	٦
أفراح العقول / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	١٠
الشجرة الوفيّة / حراء (ألوان وظلال)	١٢
مفهوم الوسطية في تقويم الفكر واستقامة السلوك (٢) / د. سعيد شبار (قضايا فكرية)	١٣
ابن سينا الكيميائي / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	١٧
كيف يميز الأنف بين الروائح؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢١
بين الواحد والألِف / فؤاد النفطي – فرج إبراهيم (قضايا فكرية)	٢٤
المنهاج النبوي في بناء الشخصية الحضارية / د. عبد الوهاب بوخلخال (قضايا فكرية)	٢٩
أيها الصرح الحزين / حراء (ألوان وظلال)	٣٣
معالم الحضارة الإسلامية / د. أيمن حسن حجاب (قضايا فكرية)	٣٤
الفصاحة.. ظاهرة صحية أم مرضية؟ / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٣٨
يوم يفرّ الأخلاّء / حراء (ألوان وظلال)	٤٠
نحو الارتقاء بمناهجنا التعليمية.. مشاكل وحلول / د. حذيفة أحمد الخراط (تربية)	٤١
الإعلام الجديد والشباب / د. العطري بن عزوز (ثقافة وفن)	٤٤
الزاحف والجزار / د. عبد الهادي العوني (علوم)	٤٨
الرياضة وألعاب الكرة في التراث الإسلامي / صلاح عبد الستار الشهاوي (ثقافة وفن)	٥٠
رد الاستدلال المجتزأ إلى الاستدلال الشامل / د. الشريف حاتم العوني (قضايا فكرية)	٥٤
وشوشة مع العارف / سعاد محمد اشوخي (قصة)	٥٧
همة صقر / محمد أبو حفص السماحي (شعر)	٥٩
الوعي بقيم الاستقلال الحضاري عند المفكر محمد فتح الله كولن / د. مصطفى الزباخ (قضايا فكرية)	٦٠

عالم المسلمين

لم يعش العالم الإسلامي منذ نشأته وفي أي عهد من عهوده، وضعًا مزريًا كالذي يعيشه اليوم، ولم تصبه حالة من ضيق الأفق كالتي تعتريه الآن.. والأدهى من ذلك افتقاده القدرة التي تؤهله لإدراك البون الشاسع بين موقعه الحالي وما ينبغي أن يكون عليه، بَلْهَ أن يُقوّم هذا الفرق أو يبحث عن أسبابه.

إنه يعيش حالة من الكسل وراحة البال، لا يؤرقه فيها مخاض فكري، ولا يقدِّم رؤية بنّاءة، وليس لديه مشروع ينهض به من كبوته تلك، ولا تَهيج في صدره مشاعر للتغيير.. قد خبا في قلبه شوقُ الحياة ونبضُها، كأن طبقة ضبابية كثيفة من الغفلة واللامبالاة قد أحاطت به من كل جانب.. لا يملك -إن استثنينا رغباته الجسدية- أيَّ أمل أو تطلع إلى المستقبل. أصبح أحيانًا حارسًا للجبارين، وأحيانًا أخرى متسوِّلاً على الطراز الحديث، أو متلوّيًا في قبضة الفقر والحاجة، أو في حالة يُرثى لها من الجهل والتعصب.

لم يعد العالم الإسلامي مهتمًّا بما أمر به الدين من التمسك بالفضيلة، والعيشِ في كرامة، والانفتاح على العلم، وقراءة الوجود قراءة صحيحة، والتنقيب في أرجاء الكون بكل دقة، وتفسير السنن الكونية والتشريعية أفضل تفسير، وتقويمها أحسن تقويم. وإنْ وُجدت فئة

قليلة تُعنى بهذه الأمور وتراعي هذه السنن، تُسدّ أفواهها وتُمنع من الكلام، ويُحجَب الناس من الإنصات إليها.

لقد غدت السفاهات التي استُوردت من الخارج مِن أكثر الأمور رغبة وانتشارًا، حُشدت الوسائل التكنولوجية وكُثفت الحملات لترويجها، وراحت الجماهير السائبة تعيش حالة من التشوش والذهول، وباتت أجيال من الشباب تتردى في شباك الفحش والرذيلة وإدمان المخدّرات، تولّي وجهها نحو التفسخ والانحلال تحت مقولة: "دعني أعشْ على هواي".

عندما ينظر الإنسان إلى قوة الإسلام الديناميكية وثرائه، يود أن يرى كل جانب من جوانب العالم الإسلامي معمورًا، وكل مدنه قِطعًا من الجنان، شبيهة بالفردوس حواضرُه وقراه، مفعمًا بالأمل والسعادة أُناسُه، قد شغلتهم حمّى البحث عن الحقيقة، يقضون أوقاتهم بين الكتب والمختبرات، اختزلوا ساعات نومهم ولهوهم في سبيل البحوث والتدقيقات، ووهبوا أرواحهم للحق تعالى.

ولكن الحقيقة المؤلمة، هي أن المأمول عكس الواقع المشاهَد تمامًا؛ فإن بحثتَ الآن في طول العالم الإسلامي وعرضه عن أصحاب تلك الأرواح التي عمَّرت الدنيا فيما مضى، فلن تجد مثقفين على هذا النحو روحًا ومعنى، إلا أعدادًا تعدّ على أصابع اليد الواحدة، ولن تجد معماريين -باستثناء عدد قليل- يحاولون أن يعمروا ويرمموا جوانبنا المتصدعة والآيلة إلى السقوط.

لقد كان المتوقع من منتسبي هذا الدين أن يكونوا أسعد مَن في هذه الأرض وأكثرهم تفاؤلاً وأملاً، وأن يكونوا في الصفوف الأولى من العالم في كل مسألة، وأن يكونوا بعزمهم وإيمانهم وثباتهم مرشدي العالم، يقدمون له المشاريع الكبرى، ويحلّون مشاكله. كنا نتوقع أن يزدهر العلم والمعرفة في بستانه، وأن يكون هو الأسوة الحسنة للعالم خُلُقًا وقيَمًا. كنا نتوقع أنه عندما يَرِد ذكر العدالة وسيادة القانون والحق وحرية الفكر والعقيدة، يخطر العالم الإسلامي على البال. ولكن هل هو كذلك اليوم؟ هيهات هيهات! لقد تعددت السهام المصوَّبة إلى إيمان المؤمنين فأصابته بجروح بالغة حتى

إن العالم الإسلامي لا يمكن أن ينجو من الوهدة السحيقة التي سقط فيها، إلا على أيدي أناس تربوا على قيمهم الأصيلة، ذوي إرادة وعزم، ساعين في الخدمة الإيمانية بكل جدّية، عازمين على تخطي جميع المصاعب والعقبات، أبطال للعلم والمعرفة والإرادة، لا يبتغون جزاء ولا شكورًا سواء في الدنيا أو في الآخرة.

تكسّرت النصال على النصال، وخارت القوى وانهدّت العزائم، وتكسّرت عندهم أجنحة الإرادة، وسُلّم العلمُ والعرفانُ رهينين للأيدولوجيات.

إن الكلام كثير حول الخُلُق الرفيع، لكن الواقع يكذّب هذا الكلام. فالعدالة غدت سلعة تُباع وتشترى، وحقوق الناس باتت تحت تصرف القوى الغاشمة. أما الحرية والإخاء والمساواة فخيال صعب المنال، وتوقير الإنسان والقيم الإنسانية أصبحت مجرد مواضيع ميتة تطرح في قاعات المؤتمرات وصالات الندوات فقط.

إلى جانب هذا كله، فالعالم الإسلامي -الذي يشغل موقعًا جغرافيًّا واسعًا -متأخر إلى درجة كبيرة في العلم والتكنولوجيا والفن والتجارة. أما مكانتنا في العالم فحدّث ولا حرج.

ولو كنا -في ظل كل هذه السلبيات- في سلام واتفاق فيما بيننا، لهَان الأمر بعض الشيء، ولكن هيهات! فهذا العالم الكبير ينتج ويولد أشياء عجيبة لا يمكن التنافس فيها؛ ينتج الحقد والكراهية والعداء وتشويه الآخرين، ويؤسس كل خططه على الخصومة والعداء.. وهذا دأب كل أمة فيما بينها. أجل، فمنذ سنوات عديدة صارت تقوية جبهات العداء والخصومة فيما بيننا هي شغلنا الشاغل، اخترعنا مخاطر وهْمية وعداوات مصطنعة، وفرّقنا بين الجماعات وزرعنا بينها الفتن؛ فحوّلنا هذه المساحة الجغرافية المباركة إلى وديان خوف وفزع وأرض رعب وذعر.

إن ديننا السامي يَعِدنا بسعادة الدارين، ويفتح أمام أعيننا فضاء إنسانيًّا رحبًا، ويمدّ حياتنا بما يزيدها خصبًا

hiragate.com

وانفتاحًا، إلا أن هؤلاء الغارقين في دنياهم لا يبالون بكل هذا، فلا ينفذ إليهم ذلك التأثير الساحر للإسلام، وليس هناك من أمارة على هذا التأثير. فكل ما نراه هو ضعف المؤمنين وقلة وفائهم، وخصومة الملحدين وشدة عدائهم. فإذا قمت بأي نشاط ديني فستتعرض لمواجهة الملحدين عند خطوتك الأولى، وسيكون إيمانك وعقيدتك، وآمالك وأفكارك الميتافيزيقية موضعًا للسخرية والاستهزاء في الخطوة الثانية، وستبقى عرضة للّوم والعتاب من بعض الفئات. وإذا دافعتَ عن الحوار وقبول الآخر والتسامح واحتضان الجميع، فستتوجه نحوك قذائف الطعن، وتنهمر فوق رأسك سيول التهديد من "خوارج العصر". وإن عشت كما يأمرك دينك تعرّضت للهجوم من قِبَل بعض البؤر التي لم تقدّم حتى الآن أي شيء إيجابي، ولم يكن لها نصيب في أي نجاح، وتحاك ضدك المؤامرات تلو المؤامرات، ثم تتحول هذه الهجمات الشرسة من قِبَل الذين يهينون الدين والمتديّنين، ويشوهون ماضيك وتاريخك، ويستهينون بقيَمك الملّية والدينية، ويسبّون آباءك وأجدادك.. تتحول كل مظاهر هذا الانحراف والضلال وعدم التوازن إلى شراب سامّ، وإلى صديد يسيل في جوفك ويجرّعك آلام الغربة ولوعتها.

أمام كل هذه السلبيات، يقع كثير من الناس فريسة لليأس ويرددون دائمًا: "لا خير ألبتة في هذه الدنيا التي نحياها، ولن يكون المستقبل بأحسن حالاً". وكثير من هؤلاء -أيضًا- يفقد الأمل تمامًا؛ فيرخي لنفسه العنان ويدَع نفسه للتيار، وهذا أمر طبيعي لكل من لم يتربّ على الإيمان وينشأ على الأمل.

أجل، إن كان كل ما يُبنى اليوم يُهدم غدًا، وإن كان المخلصون يُطارَدون كالمجرمين، وإن كان كل فرد يريد إقامة هذه الدنيا حسب أهوائه ورغباته، ويحطّم في هذا السبيل كل من يخالفه أو يختلف معه في آرائه وقيمه -وهذا ما يجري في هذا الجزء البائس من الجغرافيا منذ عصرين- فلن يبقى عند أحد أيّ أمل أو عزيمة.

إن من الغريب أن هؤلاء الجبابرة الأقزام، والمنافقين من حولهم الذين يرتابون من أي عمل منجَز باسم الدين والأخلاق والفضيلة، ومن كل خدمة إيجابية، ويتهمون كل من يقوم بأي نشاط بنّاء في هذه الدنيا البائسة المنكودة الحظ، وينظرون إليهم وكأنهم جناة مجرمون.. من الغريب أنهم لا يرون الحالة المأساوية لدنيا المسلمين، وينسونها أو يتناسونها، بينما تسود في هذه المنطقة الجغرافية حالة رهيبة من الركود والشلل، فالأدمغة فيها لم تعد تنتج شيئًا منذ عصور، وكل مصادر القوة فيها معطلة؛ الخرائب في كل ناحية من نواحيها، والبوم ينعق فوق هذه الخرائب. والأنكى من هذا كله أنْ غدت هذه الدنيا العظيمة للمسلمين مأوى لعفونات العالم، وملجأ للعاطلين منهم والزَّمْنَى.

لقد عاين محمد عاكف (ت ١٩٣٦) هذه الحالة المأساوية للعالم الإسلامي، وعبّر عنها في أبيات شعرية تُفتّت القلوب قائلاً:

يقولون ماذا رأيتَ وقد سحْتَ في الشرق كثيرًا؟
رأيتُ مدنًا مدمَّرة، بيوتًا مهجورة، أمة دون زعامة،
جسورًا مهدَّمة، قنوات مُخرَّبة، طرقًا دون مسافرين،
وجوهًا متغضنة، جباهًا دون عرَق، أياديَ مشلولة،
ظهورًا منحنية، أعناقًا ضامرة، دماء لا حرارة فيها،
رؤوسًا لا تفكر، قلوبًا لا تبالي، ضمائر صدئة،
استبدادًا غاشمًا، أَسْرًا ظالمًا، طغيانًا وإذْلالاً،
رياء وابتلاءات، أمراضًا وعللاً.
أئمّة دون جماعة، وجوهًا باسرة، جباهًا لا تسجد،
إخوانًا يقتلون إخوانهم في الدين باسم "الجهاد"،
مساكن خاوية، قرى فارغة، أسطحًا مهدَّمة؛
بكيت عندما مررتُ، بكيت عندما وقفتُ،
لا أحد يَسمع، لا أحد يتكلم، وطن يُرثى لحاله،
صراخ مئات الآلاف من الأعماق.
إلهي! أهذا العالم الذي أراه هو مهد الإنسانية؟
هل من هذه الصحاري انبثقت في التاريخ الحضارة؟
أكانت هذه البراري وطن التوحيد؟
أمِنْ فوق هذه الرمال -يا رب- ظهر الأنبياء؟

نعم، لكن هناك -في هذه الديار الحزينة- من لم يفقد عزمه وأمَله بعدُ، هناك أعداد لا بأس بها من عشّاق الحقيقة ومحبّي العلم، ورجالٌ نذَروا أنفسهم

hiragate.com

لخدمة الإيمان، يسعون إلى غاية سامية.. ولكن ما يحز في النفس أنْ نرى أصواتهم تطغى على أفعالهم، ضجيجهم أقوى من أنشطتهم.. فصراخهم -وهم يقومون بفعالياتهم- ضرره أكثر من نفعه؛ يُفزِع غيرَ المؤمنين، ويزيد مخاوفَ الذين أحاطت بهم الأوهام والهواجس، ويدفع "كارهي الإسلام والنافرين منه" إلى التحرك ضده. فإذا بالأصوات الصاخبة ترتفع من كل جانب، ثم تَتَتابع الهمهمات والشكاوى، ثم يأتي وقت تبدأ فيه المخابرات الأجنبية وكتائب المرتزقة عملَها. وفي النتيجة يُدَمَّر كل ما بُني في السابق، تُقطع الطرق، وتُهدم الجسور، ويتراجع كل شيء إلى الوراء، وتُصَفَّى تلك النشاطات والخدمات كلها على مذبح الحقد والكراهية وطغيان العداء الأعمى. هذا هو ما جرى حتى الآن، فقد تشكلت معسكرات مختلفة في المجتمع نفسه، وحدثت نزاعات بين بعضها البعض، ثم تحولت بعد ذلك إلى تناوش بالأيدي حتى اختلطت جميع الأوراق.

إن العقل والحكمة والمعرفة أسسٌ مهمّة في الإسلام. فالتفكر والتدبر والاستدلال والاجتهاد من ضرورات المجتمعات الإسلامية. وقد دعا الرسول ﷺ أمته إلى اتخاذ سبيل العقل مرشدًا وهاديًا في ظل الوصايا القرآنية، ففي قوله ﷺ: "قوامُ المرء عقلُه، ولا دين لمن لا عقل له" (شعب الإيمان للبيهقي)؛ دعوة لنا إلى استخدام العقل والمنطق في كل أمورنا. لقد كان ﷺ دائمًا بجانب العلم، وكان يبجّل العلماء. فهو أول القائلين: "طلبُ العلم فريضة على كل مسلم" (رواه ابن ماجه)، وهو القائل أيضًا: "الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها" (الترمذي وابن ماجه). لقد حث النبي ﷺ على العلم والحكمة مرارًا، وإن الآثار الواردة في هذا الشأن لتربو على المئات، ورغم حضّ النبي ﷺ على هذا وتكراره المتواصل، فإنه لمن الغريب حقًّا أن نرى المسلمين -منذ عصور عدة- لم يستوعبوا هذا الأمر، ووضعوا بينهم وبين العلم والعرفان والفن حجابًا. بل الأمرُّ من ذلك أنهم خمدوا وأصيبوا بعقم فكري، ومالوا إلى السكون والراحة والدعة، وبلغوا مرحلة من الغفلة لم توقظهم منها حتى طَرَقات المستعمرين وسيطرة المحتلين. وبلغ الأمر حدًّا أنه رغم وصاية الآخرين عليهم، لم يتحركوا حتى يكتشفوا ما يجري حولهم، وبات معظمهم لا يعرف الحقيقة، ولا يملك ميلاً للبحث عنها، ولا عشقاً لها، كما لا يراود أكثرَهم شعور بالخجل أو الحرج لكوننا عالة على غيرنا في مجال العلم والتكنولوجيا، والقلة الباقية لا يكاد يُسمع لها صوت.

أما عبوديتنا لله تعالى ومستوى إخلاصنا في الإيمان، فهي ليست أقل سوءًا من سلبياتنا الأخرى. فقد تحولت عباداتنا إلى طقوس فولكلورية، وإلى مجرد تقليد من التقاليد. ولو كنا نوقر التقاليد لخُفِّفت عنا بعض أوزارنا، ولكن هيهات!

في وضع كهذا، هل يمكن استيعاب جوهر الإسلام؟ وهل للحديث عن الفهم الصحيح لقوانين الإسلام التشريعية، أو استيعاب أسسه التكوينية وفقهها وتفسيرها والإحاطة بها أيّ جدوى؟ لذا فإن أول ما نحتاج إليه في هذه المنطقة المظلمة التي تعيش فيها مجموعاتٌ من المسلمين، فقَدتْ لونها وملامحها، وتشوهت فيها لغتُها ولهجتُها، هو إشعال جذوة العشق للحقيقة، وإحياء روح محبة العلم، وإيقاظ الرغبة في البحث، وتنبيه الضمائر إلى حقيقة الدين وروحه الأصيل.

إن هذا العالم لا يمكن أن ينجو من هذه الوهدة السحيقة التي سقط فيها، إلا على أيدي أناس تربّوا على قيمهم الأصيلة، ذوي أرواح فتيّة وعقول متوقّدة، نذروا أنفسهم للحق تعالى، وحملوا همًّا مشتركًا واتجهوا نحو غاية واحدة، لا يرجون نفعًا ذاتيًّا، ذوي إرادة وعزم، ساعين في الخدمة الإيمانية بكل جدّية، عازمين على تخطي جميع المصاعب والعقبات، أبطال للعلم والمعرفة والإرادة، لا يبتغون جزاء ولا شكورًا سواء في الدنيا أو في الآخرة.

لقد عشنا حتى الآن على أمل قدوم هؤلاء الأبطال، وسنبقى في انتظار قدومهم ما حيينا. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٣٠٣، السنة ٢٠٠٤. الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

hiragate.com

قضايا فكرية

د. عبد الإله بن مصباح*

التأسيس القرآني للوعي البيئي

من خلال الوقوف على الآيات التي وجهت الإنسان إلى النظر في الكون، نجد أن القرآن جاء بتوجيهات رشيدة وحكيمة، تحث كل إنسان على البحث والتفكر في الطبيعة، لعله يبني على أسسها فكرًا علميًّا يمكّنه من حسن استثمار ما سخره الله تعالى له، وفق تدبير متوازن مع محيطه البيئي.

فلما كان العلم في الإسلام يقتضي الإحاطة بالدوائر المعرفية الثلاث التي هي الواقع والعقل والوحي، وكان الواقع -في جزئه الأكبر- تشكله الطبيعة المحيطة بالإنسان، جاء الخطاب القرآني مشتملاً على توجيهات تهدف إلى بناء مفاهيم الإنسان على أسس فكر بيئي يشمل مجمل الإدراك العلمي للجوانب الطبيعية وغير الطبيعية المحيطة به، والتي تؤثر في حياته -بشكل مباشر أو غير مباشر- حتى يكون مسلكه حضاريًّا منطلقًا من العلم بالبيئة إلى العمل بمقتضياتها، ومن الاستغلال المصلحي لطبيعتها إلى الاستثمار الرشيد لمواردها، ومن التصرف الحيادي إزاءها إلى الالتزام بمسؤولية الدفاع عنها. من أجل ذلك نجد الخطاب القرآني يبني الوعي البيئي على هذه الأسس الثلاثة:

١- الطبيعة باعتبارها الواقع المحسوس الذي عليه يقوم البناء المفاهيمي لنسق الفكر البيئي.

٢- العقل باعتباره أداة الفكر المؤسس للنماذج التفسيرية لهذا البناء المفاهيمي.

٣- الوحي باعتباره مصدر الحقيقة المطلقة التي إليها تؤول كل نُسق هذا البناء.

فإذا بُني الوعي البيئي على هذه الأسس الثلاثة بناءً متوازنًا يضمن التفاعل والانسجام بين معطيات دوائرها المعرفية، وصل إلى تحقيق المراد، وإلا فسيختل توازنه ولا يستقيم البناء.

الإنسان وعلاقته بالبيئة

البيئة هي مجموع العناصر الطبيعية التي تحيط بالإنسان، وتساهم -بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- بمدّه بمتطلبات حياته. فهي -إذن- الإطار الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، والمحدد بمكوناته الجمادية وكائناته الحية، وما يسوده من مظاهر التضاريس والمناخ والموقع الجغرافي، وما إلى ذلك من علاقات متبادلة بين هذه العناصر. وقد تكون البيئة طبيعية أو مشيدة، وكلها مجالات حيوية دائمة التفاعل تؤثر وتتأثر، والإنسان واحد من مكوناتها. ومن أهم سِمات البيئة، أنها متغيرة بفعل الزمان وفق سنة التطور التي أقرَّها الخالق في خلقه، أي أنها متطورة.

أما مكونات البيئة، فمنها الجمادية كالهواء -وهو الذي يملأ الغلاف الجوي بنسبة ٧٨٪ من النيتروجين و٢١٪ من الأوكسجين و٠,٠٤٪ من ثاني أكسيد الكربون والماء الذي يوجد إما في شكل مياه سطحية من سيولٍ ووديان وأنهار وبحيرات وبحار مالحة، أو في شكل مياه باطنية مخزنة تحت سطح الأرض، وكلها من أصل التساقطات المطرية. ثم التربة وهي فراش الأرض المكون من الحصى أو الرمل أو الطين أو غيره من أنواع الصخر الناتجة عن عمليات معقدة للتعرية والنقل والترسب استغرقت زمنًا طويلاً.. ومنها الحياتية كالنبات وهو مجموع الكائنات الحية ذاتية التغذية، المنتجة للطاقة بفعل عملية البناء الضوئي عن طريق امتصاص الماء والأملاح المعدنية بالجذور، واستقطاب الضوء وثاني أكسيد الكربون بالأوراق. والحيوان وهو مجموع الكائنات الحية غير ذاتية التغذية التي تعتمد في

إن القرآن الكريم من خلال دعوته الإنسان إلى السير في الأرض، والنظر في أطوار الخلق، يؤسس لمدرسة وعي بيئي قوامها الطبيعة التي هي واقع الإنسان، والعقل الذي هو وعاء فكره، والوحي الذي هو مصدر حقيقته.

حراء

إنتاج طاقتها على المادة العضوية للنبات، أو على مادة حيوانات أخرى عاشبة، وأخيرًا الإنسان وهو المكوّن السادس للبيئة.

وكلٌّ من هذه المكونات لا يمكن له أن يوجد إلا إذا وُجد الذي قبله، كما نجده مرتبًا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:٢٧)؛ حيث ذُكرت كل المكونات إلا الهواء باعتباره أول مكون، لأنه الأصل في تكوين ذرات الهيدروجين والأكسجين، التي تشكل الماء. وكذلك لأنه بتياراته المشكّلة للرياح تساق السحب التي تمطر الماء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾(الأعراف:٥٧).

وعليه فالبيئة مجال حيوي مفتوح على مكوناته مغلوق على نفسه، تتحكم فيه مختلف المكونات المذكورة. والتوازن البيئي هو نتاج التفاعلات الحاصلة بين مختلف هذه المكونات، سواء الجمادية فيما بينها، أو الحياتية فيما بينها، أو الجمادية مع الحياتية. وهي التفاعلات التي نجدها أحكِمت في الطبيعة بدقة فائقة ووفق نظام بالغ التعقيد، إذا امتدت إليه يد الإنسان بغير علم، اختلت موازينه.

الإنسان مرآة لبيئته

البيئة وعاء الإنسان، ومن ثم فهي مؤثرة فيه وهو مؤثر فيها. والإنسان مؤلَّف من مكونات هذه البيئة، ويستمد كل حاجاته منها. وبالتالي فكل مكونات البيئة نجد لها حضورًا في تركيب الإنسان، مما يجعل الإنسان مرآة

hiragate.com

لبيئته. ولهذا، لما أراد ابن طفيل -رحمه الله- أن يصور حقيقة البيئة وتجاوبها مع الإنسان، جسّد في قصة "حي بن يقظان" الإنسان مجردًا عن كل الأسباب ما عدا أسباب الطبيعة، ومن ثم خلص إلى تأسيس بناء مفاهيمي قوامه الطبيعة والفكر والحقيقة، وعلى صرحه وضع قوانين المحافظة على البيئة؛ بأن لا يأخذ الإنسان من الطبيعة إلا ما هو أكثر وجودًا وأقواه توليدًا، وأن لا يستأصل أصول الحيوان ولا يُفني بذور الزرع والنبات، وأن لا يستهلك إلا بقدر الحاجة، وما إلى ذلك مما استلهمه من نظرته العقلانية للواقع والحقيقة.

تلك النظرة التي نجد لها أصولاً في الخطاب القرآني الذي حث الإنسان -في أكثر من موضع- على تحاشي التبذير والإسراف، كما نجده منصوصًا عليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾(الإسراء:٢٦-٢٧)، وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأعراف:٣١). إلا أن الإنسان اليوم -من خلال تطوره العلمي وتقدمه التكنولوجي- بَعُد كل البعد عن هذا التصور، وأصبح له تأثير مزعج على تطور البيئة.

كيف غيّر الإنسان بيئته؟

البيئة تتغير بشكل طبيعي على جميع المستويات الزمنية، من سنة لأخرى، ومن قرن لآخر، ومن ألفية لأخرى، وكذا على ملايين السنين.. لكن الإنسان بنشاطاته الصناعية والفلاحية والعمرانية المتزايدة، أصبح مؤثرًا وازنًا على هذا التغيير. فالتقدم الصناعي احتاج إلى قطع كميات هائلة من الأشجار لتوفير الخشب، مما تسبب في تغيير دورة المناخ ومعه دورة التساقطات المطرية. كما أدى اقتلاع الغابات إلى حصول ظاهرة التصحر، بتحول أراضي خصبة إلى صحارى قاحلة نتيجة زحف الرمال.

كذلك تسببت كثرة انبعاث الغازات من المعامل ووسائل النقل البري والجوي والبحري، في انتشار السحاب الضبابي الذي يحبس الأشعة تحت الحمراء المنبعثة من الأرض، ويحول دون خروجها إلى الفضاء الخارجي عن الجو، مما أدى إلى ارتفاع حرارة الأرض المعروف بـ"الاحتباس الحراري" الذي يسبب -حاليًا- ذوبان الثلوج القطبية للأرض، ورفع المنسوب العالمي للمياه على سطحها، مما ينذر بإغراق العديد من المناطق الساحلية.

فالإنسان بنشاطاته المختلفة (الصناعة، النقل، التدفئة، التدخين) يشحن الجو كل سنة بما يقارب ٧ مليارات طن من ثاني أكسيد الكربون، وهذه الكمية نِصفها يُمتص من طرف النبات الأخضر وصخور الكلس وبعض التفاعلات الكيميائية في الجو، والنصف الآخر يتراكم في الغلاف الجوي. ومن أخطر الأدخنة الملوثة للجو، تلك المنبعثة من حرق المواد البلاستيكية، والتي تؤدي إلى الاختناق، وأمراض الربو، وسقوط الأمطار الحمضية، وتأجيج الخرق الحاصل في طبقة الأوزون المسبب لتسرب إشعاعات خطيرة نجمت عنها أشكال مختلفة من الأمراض السرطانية.

كما أن الإنسان يلوث مياه الأرض بشكل كبير، وذلك بفعل النشاط الصناعي المفرط، والتزايد العمراني، وخاصة العشوائي الذي لا يراعي التدبير السليم لشبكات الصرف الصحي؛ حيث إن لترًا واحدًا من ماء الصرف الصحي، يلوث ٢٥ لترًا من الماء الصالح للشرب، وميليلترًا واحدًا منه يحتوي على مليونين إلى ثلاثة ملايين من الجراثيم، التي تظهر بسببها الأمراض المختلفة كالإسهال، والتسممات، والأمراض الطفيلية وغيرها. وكذلك التربة هي أيضًا، مسرح لعمليات واسعة من التلوث البشري، بسبب الإفراط في استعمال الأسمدة الكيميائية والمبيدات الحشرية التي تتسرب منها إلى المياه وإلى النبات، فإذا تجاوز التلوث حدًّا معينًا صار فسادًا.

وكل هذا، سبق في علم الله الذي أشار إليه في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١)؛ فجاء الخطاب القرآني من أجل ذلك، موجّهًا الإنسانَ إلى العلم بقواعد بيئته عن طريق فهم نظم الكون. فقد تأكد علميًّا بالتجربة، أن المفتاح الوحيد لنجاح الإنسان في تعامله مع البيئة وتوظيفها لمصلحته، يكمن في التزامه بعدم تغييره لنظُمها؛ لأن

hiragate.com

هذه النظم جزء من قوانين الكون المتناسقة والمنسجمة التي تضمن توازنه.

فإذا غيّر الإنسان فيها بغير علم، فذلك يعني إحداث الخلل في موازينها. والقرآن ينبه على مغبّة التغيير العبثي لنواميس الطبيعة، ويحذر من عواقبه الوخيمة، حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥). كما أن الإنسان لكي يستفيد من الطبيعة في مشاريعه التنموية وإنجازاته الحضارية، يجب عليه أن يعمّق البحث في أسرارها، وأن يعمل على سبر أغوارها والاجتهاد في محاكاة نماذجها، لأنها مرجع تجريبي يجب على الإنسان أن يعتمد عليه في بناء النماذج المعرفية التي تمكنه من تحقيق منجزاته التنموية، وهذا لن يتم إلا بالعلم بالمبادئ الأساسية للبيئة، مع ضرورة العمل بما علِمه الإنسان من مقتضياتها، وعدم العمل بما لا علم له به من حقائقها، ثم ضرورة تعليم الآخرين لمبادئ التعامل معها والمحافظة عليها.

القرآن وحقيقة الكون

القرآن بيّن للإنسان أن الكون ليس به خلل أو فساد، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(الملك:٣)، وإن ظهر الفساد فيه فبما كسبت يد الإنسان. وهذه المظاهر من الاختلالات البيئية والكوارث الطبيعية التي باتت تدق ناقوس الخطر اليوم، إنما هي رسائل إلهية، أو بصائر جاءت لتوقظ الإنسان من غفلته، وفي ذلك قال ربنا الكريم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:١٠٤). والبصيرة هي -كما قال المفسرون- الحجة والدلالة، وقد وصفها الله بالمجيء لتفخيم شأنها كما قال القرطبي رحمه الله، إذ أنت في مكانك لم تبحث عنها، فجاءتك معلنة لك الخبر عن الاحتباس الحراري، وثقب الأوزون، وتزايد حدة الأمراض، وتفاقم الكوارث وغير ذلك.. فمن بادر بإصلاح ما فسد فلنفسه، ومن عمي فعلى نفسه يعود عماه، وليس الله بحافظ من تغاضى عن هذه الرسائل، ولم يعمل بمضامينها كما جاء في آخر الآية.

لقد تأكد علميًّا بالتجربة، أن المفتاح الوحيد لنجاح الإنسان في تعامله مع البيئة وتوظيفها لمصلحته، يكمن في التزامه بعدم تغييره لنظُمها؛ لأن هذه النظم جزء من قوانين الكون المتناسقة والمنسجمة التي تضمن توازنه.

فالتغاضي قد يوقع البشرية كلها في الهلاك؛ لأن الأرض سفينة تحملنا جميعًا، والحفاظ على سلامة بيئتها مسؤولية تلزمنا. فإن نحن لم نتدارك بعضنا بالتوعية والنصيحة، فإن أخطاء الغير ستصيب الكل، وفي ذلك جاء حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: "مثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثَل قوم اسْتَهَموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعًا" (رواه البخاري).

وهكذا، نجد أن القرآن الكريم من خلال دعوته الإنسان إلى السير في الأرض، والنظر في أطوار الخلق، يؤسس لمدرسة وعي بيئي قوامها الطبيعة التي هي واقع الإنسان، والعقل الذي هو وعاء فكره، والوحي الذي هو مصدر حقيقته. وذلك من أجل وضع الباحث أمام دراسات مقارنة بين ماضي أسباب البيئات وحاضرها، تمكّنه من معاينة تفاصيلها واستشراف المستقبل، وفقًا لسنة التطور التي أقرَّها الخالق في خلقه. ومن ثم يكون القرآن من خلال منهجيته العلمية هذه، مؤسسًا لمدرسة فكرية عنوانها "تحرير العقل" من حجر التبعية والخنوع، قصد النفاذ بالإنسان من أقطار التلقين الاجتماعي الموجه إلى فضاء الإلهام الفطري -الذي في فضائه يخلو الإنسان بنفسه فتتكلم مواهبه وتنشط تجاربه- لتنتشله من أوحال التقليد والاستلاب، وترقى به في مراتب أولي الألباب. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiragate.com

أديب إبراهيم الدباغ*

من استقام على الصراط السوي هنا، تجاوز الصراط المستقيم هناك.

الموازين

أفراح العقول

بعض الأفكار الجديدة والمبتكرة التي تجود بها قرائح المفكرين المجددين، تحتلُّ من أرواحنا المكان الأسمى، وتقوم في عقولنا المقام الأرفع، فنهتزُّ لها ونحفل بها، ونبتهج بها ابتهاجنا بالمولود الجديد بعد تعسُّر شديد.

والأستاذ فتح الله كولن -بإجماع الدارسين- رجل التجديد والتحديث الديني على كافة المستويات في هذا العصر، فهو لا يني يتحف قرَّاءَ "حراء" ببوارق فكرية وروحية لم تشهد آفاق الفكر الديني الحديث مثيلاً لها من قبل، وهو يريد بهذا تحريك الساكن العقلي، والهامد الروحي، لاعتقاده بأن هذه الأمة تظلُّ في همود وخمود ما لم تشتعل أرواح أبنائها بنيران الأشواق إلى الله تعالى، وما لم ينزع أفرادها عن عقولهم أنماط التفكير المتسطح الضحل، وتستبدله بالأعماقية النهضوية المغامرة والمقتحمة.

فالأستاذ ينفي أن يكون الخطأ والانحراف عن الله تعالى أمرًا سرمديًّا لا يمكن للإنسان أن يتخطاه، بل المشكلة الأساس هي اكتشاف سبل الوصول إلى الإنسان، واعتماد فطرته السليمة غير الملوّثة في المخاطبة والتبليغ، لكي يساعد نفسه في الانطلاق إلى الأمام دون قيود ومعوقات موروثة تجعله يراوح في مكانه فلا يتقدم بل كثيرًا ما يتأخر.

فالأستاذ يحاول توتير دواخل الإنسان المسترخية والمستنيمة، ويحفز قواه التنشيطية والتفكيرية، فيشعل فتائل إرادة الفهم والإدراك والمبادرة إلى التخيير والتغيير.

فإنسانية الإنسان لا تستقيم ولا تظهر على حقيقتها ما لم يكن وراءها إرادة تحرك فيها عجلة التغيير، والخروج من الساكن المميت إلى الحركي المحيي. وإنه ليسعى جاهدًا لكي يكون المسلم ذا روح انفعالية شديدة الرهافة، بحيث تكون على استعداد دائم للتأثر بالإشارات الكونية والقرآنية، والتلقي عنهما، والانفعال بهما، والتناغم معهما.. فيغدو بذلك مركز إشعاع كوني المركز، ومنار إرشاد إنساني التوجه. وهذه هي المهمة الأساس التي يريد الأستاذ "فتح الله" تذكير المسلم بها، واستنهاضه لها، وحفز إرادته للعمل من أجلها.. فمن غيرها يكون المسلم قد تنكر لمسؤوليته الأخلاقية، وفرَّط في الأمانة التي اؤتمن عليها من قبل خالقه.

والأستاذ "فتح الله" لم يكن في يوم من الأيام صاحب فكر مجرد، ورؤى حافية لا أرجل لها تمشي بها وتشق طريقها بين الناس، بل هو صاحب رؤى، كثيرًا ما تتجسَّم في نماذج بشرية عالية الثقافة، ورفيعة الفهم والإدراك، تستلهم من رؤاه، وتنحت من أفكاره أمثلة منظورة محسوسة، وقائمة بين الناس في أسواقهم ومحالهم ومكاتبهم ومدارسهم، وجامعاتهم، وفي كل مكان يدرج فيه الناس، وتتحرك بهم المعايش والأرزاق.

إن عالم المسلم اليوم عالم منهوك القوى، مشلول الفهم، أعرج الروح، هَشُّ البناء، مهزوز الاعتقاد، يقطنه مسلمون متعبون، منهوكون حائرون ووجلون، فهم في أمسّ الحاجة إلى عقليات جديدة فتية؛ لتخرجهم مما يعانون وتستنهضهم للقيام بواجبهم الديني والأخلاقي،

يسعى الأستاذ فتح الله كولن جاهدًا لكي يكون المسلم ذا روح انفعالية شديدة الرهافة، بحيث تكون على استعداد دائم للتأثر بالإشارات الكونية والقرآنية، والتلقي عنهما والانفعال بهما والتناغم معهما، فيغدو مركز إشعاع كوني المركز، ومنار إرشاد إنساني التوجه.

وإلا فمتى كان الضّجِرون من أنفسهم، والهاربون منها، والتائهون عنها، أصحاب قدرة على استصلاح عالم اليوم الذي يشكو الخواء الروحي والانحسار الفكري، والهبوط الإيماني والأخلاقي.

فعلينا أن نقرَّ بأننا نعاني عسرًا عقليًّا، وخلطًا روحيًّا وحضاريًّا، أفسد قدراتنا على التفكير السليم، وشلَّ ضمائرنا عن الإدراك الصحيح. فنحن في حاجة اليوم إلى "الكلمة المبصرة"، تلك الكلمة ذات التوافق الأبيد، والجامع الشديد بين السنن الكونية والقرآنية.. فثمة صلات وعلاقات لانهائية تربطنا بهذا الوجود القائم، ونحن وإيّاه في تعاشق لا ينتهي ولا ينقطع.. فوجودنا يشكّل أعظم أجزاء التوازن الكامن في خفايا الوجود، بحيث إذا ما حان أجل الإنسان وغاب عن هذا العالم، فإن وجود العالم سينتهي معه كذلك.

إن أفكار "كولن" أفراح للعقول، ومواسم أعياد للأرواح، وأَهِلَّة بشرى للصابرين على لأواء العذاب، وأنداء تتنزل بالسواء على القلوب القاحلة، وعلى نيران الجحيم التي تأكل الأرواح وتسوط العقول بشواظ من نار.. إنها تستنبت في أراضي النفوس الجُرد الحقولَ النضرة، والرياض الباسقة.. فأفكاره عالم واسع من الغبطة الفكرية، لا يسعك معها إلا الإطباق عليها بحواسّك الخمس، وبكل قوى مشاعرك ووجدانك، لأنها توفر لنا إحساسًا شديدًا بأننا أصحاب منهج فكري وروحي عظيمي الاتساع، عميقي الأغوار، وأن عوالم ما "بعد الوراء" غدت في متناول أيدينا وقبالة أنظارنا. إنها -أي هذه الأفكار- تسمو بنا إلى عالم مثالي يأخذنا -بقوة- إلى التفكير بأمور عظيمة ذات شأن عظيم، تتعلّق بمآل البشرية وبمصيرها، وتجعلنا ننظر إلى الحياة على

hiragate.com

أنها الجدُّ فوق كل جدّ، وأنها كفاح ونضال من أجل أن يسود الإيمان والحق والعدل والخير والجمال العالمَ الذي نحن جزء لا يتجزأ منه، وإننا -لا قدّر الله- لنفجع البشرية بأعزّ ما تعتز به وهو "الإيمان"؛ إذا نحن تخلينا عن مهمّتنا، وأسأْنا استخدام ما عندنا من تراث روحي عظيم يسع العالم كله، ليطلق قواه الإيمانية الخفية التي لا زالت حبيسة في فكر البشرية وروحها.

فالتضحية بالنفس في سبيل هذه القيم العالية الشأن، هو أشرف ما دعت إليه السماء أهلَ الأرض. فهذه القيم تظلُّ حية لا تموت، لأنها انعكاس عن جوهر الحقيقة الكبرى التي إليها تعود كل حقائق الوجود، وربما مات وذهب جسم كل حقيقة، ولكنَّ روحها يبقى حيًّا مضيئًا مشعًّا يلفت إليه بشعاعه الأرواح والعقول.. وحينما يغيب روح الإنسان أو يتعامى عن إبصار مثل هذه الإنارات، فإنه يغيب معه الإدراك والفهم، وهذا ما لا يريده الإنسان لنفسه ولا أحدَ يريد له ذلك. فإذا لم يمتلك الروح شيئًا من هذه الإضاءات الجوهرية، فإنه يبقى فاقدًا للحسّ بشرف الجوهر الإنساني الذي ينطوي عليه، وهذا الفقدان هو سبب مأساة الإنسان اليوم.

فالفكر الجديد المتحرك يفصل ما بين ماضي الفكر المتراكم عن مستقبل الفكر اللانهائي. إنه يتقدم بلا هوادة، مخترقًا البعد الزماني، مشكلاً قاعدته الصلبة لِمَن يريد أن يجرب عقله من جديد، ويستهلَّ به عصرًا فكريًّا جديدًا. وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف عن المجدد الذي يأتي على رأس كل مئة سنة، إنه نوع من التضامنية الفكرية التي تنتظم عالمَ الفكر منذ آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة.. إنها قفزات فكرية متعاقبة يحدثها المفكّرون المجدّدون جيلاً بعد جيل.

فالأستاذ "فتح الله" إنما يبني بأفكاره التجديدية هذه، قاعدة انطلاق للمفكّرين المجددين الذين سيأتون من بعده، وذلك ببنائه الجسور القوية بين رجال الأدمغة الكبيرة والأرواح العظيمة، ويمحق الخرافة اللعينة التي تقول: "إن جذور الأمة التاريخية والروحية تشكّل غلاً للعقل، وحجْرًا على الفكر، وهذا ما كان يحزنه ويؤرقه". ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

الشجرة الوفيّة

آذن الوقتُ بغروبها كالشمس،
لكن ها هي تنهض لجولة أخيرة،
وتحوّل صدرها المتفحم الهرِم،
إلى رحم ولاّد، وحضن معطاء،
وتترقب مخاضًا مبروكًا،
وانبعاثًا جديدًا..
وبينما رأسها يميل إلى الغروب،
إذا بالجذع اليابس يتشقق بالحياة،
وآلافِ الرؤوس الفتية تتوالد،
وتزهو وتتألق، وإلى المستقبل ترنو،
وبشارةَ "طوبى" تحمل.

***

د. سعيد شبار*

مفهوم الوسطية (٢)
في تقويم الفكر واستقامة السلوك

إن الوسطية هي بحق إحدى كليات الدين الموجهة لمساره، المحققة لتواجده بالشكل المنسجم مع حقائق الإنسان والعمران. والعدل والخيار معنيان يؤديان مفهومًا متكاملاً للوسطية، كانا موجهين فعلاً للحركة العامة للصدر الأول الذي هو ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، و﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، حيث كان مفهوم الوسطية يحكم ويقوّم الفكر والسلوك والتصور والعمل، به توزن وتعار الأقوال والأفعال، وحيث كانت البساطة في الفهم والقوة في الالتزام، مما جعل هذا الدين ينتشر ويحقق إنجازه الحضاري العظيم قبل أن تأتي عليه انحرافات هي في أصلها خروج عن حد التوسط والاعتدال، وجنوح إلى إفراط أو تفريط، وبالتالي تنكب عن مواطن الخيرية والشهادة وغيرها من أوصاف الأمة الوسط.

وكما قال الشيخ الغزالي رحمه الله: "منذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية.. وإن الذي يحدث عند بعض الناس، أن جزءًا من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله (...) وهذا "التورم" الذي يصيب جانبًا دينيًّا معينًا، هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء. وهذا هو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.. وأصحاب رأي يلمحون

المصلحة ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.. هو السر وراء حكام يعملون، رعاة للجماهير وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام، لاذوا بالصمت الطويل"[1].

"إن الوسطية تعني أن الإنسان في الإسلام لا يعيش تناقضًا داخليًا بين روحه وجسده، بين القيم الدينية ومتطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فعدم وجود قطيعة بين الدين والدنيا بين الدنيا والآخرة، ينتج عنه من الناحية الفلسفية، أن النمط الفكري المستخرج من الإسلام ينفر من الثنائية، ولا يمكن أن يدرج في إطار المثالية أو المادية (...) فالمفاهيم والقيم الإسلامية لا توجد مبعثرة وعفوية دون نظرية ضمنية -تتسق ضمنها- فالوسطية هي الأرضية الفكرية والمنهجية للمفاهيم الإسلامية، وهي محور المنظومة الإسلامية العامة التي لا تفصل بين الدين والدنيا"[2].

"الوسطية الإسلامية تمثل السمة والقسمة التي تعد بحق أخص ما يتميز به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات.. بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الوسطية بالنسبة للمنهج الإسلامي -وحضارته- هي عدسته اللامّة لأشعة ضوئه وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضًا، وهي بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات"[3].

وإذا ما تجاوزنا التجربة التاريخية في هذا السياق إلى الفكر المعاصر، فإننا نجد الوعي بهذه المسألة أخذ في التبلور بشكل تدريجي لاستدراك الخلل التاريخي برد الاعتبار لهذه الخصيصة التي أصبح دعاتها يمثلون "اتجاهًا" متناميًا بين اتجاهات عدة تطغى عليها آفات الجمود والتقليد للموروث أو للوافد، وآفات الفهم السلبي للنصوص. لكنه يبقى دون المنظور النسقي الكلي والوظيفي الإجرائي للمفهوم كما تعرضه الأصول الشرعية، دون التراكم والامتداد والإقناع والاستيعاب الذي يحوله إلى قناعة توجه فكر وسلوك الجمهور والعامة. ودليل ذلك شيوع الفكر المتشدد ومظاهر الغلو والتطرف، التي تبتدئ من الخلاف في الرأي وتنتهي إلى الاقتتال المسلح المنظم. لا نغفل طبعًا أن لهذا الامتداد أسبابًا أخرى تتجلى في ممارسات سياسية مستبدة وظالمة، وفي فوارق طبقية وظروف اجتماعية قاسية تغذيه وتزوده بالوقود. لكن يبقى للتأطير الفكري والتربوي، وإشاعة قيم الاختلاف والتسامح، دور حاسم في درء الشبهات والتضييق عليها، وقطع قنوات الإمداد والاستدراج لضحايا الجهل والغفلة والسذاجة.

الوسطية منهاج وميزان

من شمولية واستيعابية مفهوم الوسطية في القرآن الكريم، أننا نجدها تؤطر مناحي حياة الإنسان المختلفة من التصورات الكونية والإنسانية، أو الوجودية الكبرى، إلى التكليفات الجزئية الفرعية. هذا علمًا بأن التشريع أصلاً قائم على التيسير ورفع الحرج والمشقة، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥)، و﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، و﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، وآيات أخرى كثيرة في هذا المعنى.

وفي الحديث الشريف: "إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا" (رواه مسلم)، وعنه أيضًا ﷺ: "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" (رواه البخاري)، وإنه ﷺ ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. كما توعد المتنطعين بالهلاك في قوله: "هلك المتنطعون (ثلاثًا)" (رواه مسلم)، وهم ليسوا إلا الغلاة المتشددون المتعمقون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، والذين لا يهنأ لهم بال حتى يلزموا الناس بأفهامهم الجزئية الضيقة التي هي من مباحات الدين على حساب أصوله وكلياته الرحبة الفسيحة التي تسع الناس كلهم وليس طوائف منهم فحسب.

فالقرآن يحوط الإنسان بحقيقتين أساسيتين لإدراك فلسفة ذاته في الوجود.. حقيقتان تقيمان فيه حالة التوازن والاعتدال، فلا يطغى ويتكبر ويفسد في الأرض

hiragate.com

من جهة، ولا يذل وينكسر ويهان من جهة أخرى. فهو خليفة في الأرض، مكرّم مفضّل فيها، سُخرت له المخلوقات، حامل لأمانة عظمى، سجدت له الملائكة تكريمًا، مخلوق في أحسن تقويم كما تبين ذلك الآيات الكريمات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤).

ثم إن الإنسان كذلك -وهذا ما لا ينبغي أن يغيب عنه- كائن تافه الأصل والخلقة؛ أصله الأول من تراب وسلالته من ماء مهين، والشأن فيه -إن طالت به الحياة- أن يعود إلى أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئًا. فهذا وازع يردع الطغيان في الإنسان ويكبح جماح عناصر الشر فيه. ولنقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(الحج:٥). وانظر إلى النموذج الفرعوني -وكل نموذج فرعوني مماثل- كيف انتهى إلى أصله الضعيف بعد اغترارٍ بسلطة وملكٍ غير راشد ولا سوي أو معتدل، إذ لم يتمثل الأصل الثاني المبرر لوجوده والمعدل لمنظوره عن نفسه وغيره إلا بعد فوات الأوان: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(يونس:٩٠-٩٢).

وانظر إلى نموذج سحرته في المقابل، الذين عاشوا ظلم الاستخفاف والذل والعبودية الزائفة، إذ لما تحرروا بالإيمان انتهوا إلى عزة وكرامة النفس، فقالوا من غير تردد إجابة على توعد فرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا

الغلو في الإعجاب بالذات أو الرأي إلى درجة التقديس أو التأليه، ليس من الرشد والاتزان في شيء، وكذلك الغلو في امتهانها وجعلها قابلة للاستخفاف بحيث لا تستشعر أي مسؤولية ذاتية. وإدراك الإنسان لهذا البعد في ذاته وتحققه به، يفتح أمامه أبوابًا، وييسر له التعامل والتفاعل الإيجابي مع الغير.

مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:٧٢-٧٣). فالغلو في الإعجاب بالذات أو الرأي إلى درجة التقديس أو التأليه، ليس من الرشد والاتزان في شيء، كما أن الغلو في امتهانها وجعلها قابلة للاستخفاف بحيث لا تستشعر أي مسؤولية ذاتية، ليس أيضًا من الرشد والاتزان في شيء، وإدراك الإنسان لهذا البعد في ذاته وتحققه به، لا شك أنه يفتح أمامه أبوابًا أخرى، وييسر له التعامل والتفاعل الإيجابي مع الغير، وإدراك أشكال أخرى من التوازن والاعتدال.

القرآن يعرض -كذلك- الحياة الدنيا تارة في معرض المدح والتزيين، ويعرضها تارة أخرى في معرض الذم والتقبيح. العرض الأول؛ للمعرض المنقطع والراغب عنها، والعرض الثاني؛ للمقبل المنهمك والراغب فيها، بما يؤسس فلسفة لمعنى الحياة، تجعل الإنسان قادرًا على التمييز بين ما خلق هو لأجله، وما خلق مسخرًا بين يديه. وعلى إدراك العلاقة الجدلية التكاملية بين الإثنين، فلا ينشغل بالثاني عن الأول، لأنه إلغاء أصلاً لفلسفة الحياة ومبرر الوجود وسر الخلق والتكليف، ولا ينقطع مكتفيًا بالأول عن الثاني، لأنه جزء لا يتجزأ من تلك الفلسفة الوجودية ومن ذلك السر في الخلق، بل لا يتحقق إلا به، إذ هو مجال الابتلاء والتمحيص، فلا مادية كلية في الإسلام ولا رهبانية كلية في الإسلام، لكن نسق بنائي جديد قائم الذات والتصور لهما معًا، وليس قطعًا توليفًا أو توفيقًا بينهما.

hiragate.com

وهذا ما تؤسسه آيات من مثل قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧)، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:٢٠٠-٢٠١).

ثم نجد إلى جانب ذلك آيات أخرى تحدّث الإنسان عن تفاهة الدنيا وتحذره من الاغترار والانخداع بها كما في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، وآيات أخرى كثيرة لها نفس المعنى والدلالة.

نجد هذا التوازن والاعتدال والوسطية في كل الآيات التكليفية، ونعتبر أن كل آيات القرآن تكليف وأحكام، بالإيمان والاعتقاد، أو بالنظر والاعتبار، أو بالعلم والعمل والضرب في الأرض، أو بالدعوة والتبليغ، أو غير ذلك.

• **ففي الاستقامة والتزام الحدود نقرأ:** ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(هود:١١٢)، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة:٢٢٩).

• **وفي الإنفاق نقرأ:** ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(الإسراء:٢٩)، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧).

• **وفي معاملة الناس نقرأ:** ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:١٨)، وهكذا معظم آي الكتاب المجيد.

وتبقى السنة والسيرة النبوية كلها نماذج تطبيقية، ووحدة قياسية نموذجية ومعيارية لكل المعاني السالفة، ولذلك قالت أمنا عائشة ﵂ عن النبي ﷺ: "كان خلُقه القرآن" (رواه مسلم)، أو "كان قرآنًا يمشي بين الناس"، حيث ينبغي أن تُقرَأ مع مسيس الحاجة إلى تَمثُّل بيانها وإرشادها لما يُصلِح أحوالَ الأمة والناس.

الوسطية منهج بنائي لا توفيقي

هذه إذن أهم معالم "اتجاه" الوسطية في الفكر الإسلامي، وقد حرصنا على وضع كلمة "اتجاه" بين قوسين، لأننا نستعملها تجاوزًا، ذلك أن الوسطية قبل أن تكون "اتجاهًا"، هي صلب المنهج الإسلامي ذاته في أحكامه وشرائعه ومعتقداته كما تقدم. وحدّه، الفهم الوسطي المعتدل الجامع بين مصادر المعرفة في تكاملها، وبين عالم الغيب والشهادة، وبين العلم والعمل، قادر على تحقيق المعادلات الصعبة الفكرية أولًا قبل السياسية، والتي تتجلى في التقابل والتقاطب المفهومي بين تيارات الأمة المختلفة -قديمًا وحديثًا- تحت مسميات: الرأي والأثر، والحكمة والشريعة، والعقل والنقل، والعلم والدين، والأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث، والتراث والتجديد، والإسلام والغرب، والدين والدولة، والأنا والآخر ..إلخ.

فهذا الواقع الفكري المأزوم، يحتاج إلى مركز ثقل جامع تلتقي عنده جل الأطراف المؤمنة به. وذلك هو المنهاج الوسطي البنائي للفكر والمعرفة، المستوعب من خلال أصوله الجامعة للثنائيات المتقدمة تكاملاً لا تقابلاً، والذي بإمكانه معالجة جذور الغلو والتطرف الديني واللاديني على حد سواء، يعمم في مقررات التعليم والإعلام حتى تنشأ عليه أجيال في الأمة لا ترى تناقضًا بين دينها ودنياها. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال / المغرب.

الهوامش

(١) الدعوة الإسلامية، للغزالي.

(٢) محمد عبد اللاوي: (تعقيب): محمد عمارة: في المنهج الإسلامي، ص:٢٠٤.

(٣) في المنهج الإسلامي، لمحمد عمارة، ص:٥١.

hiragate.com

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

ابن سينا الكيميائي

ولد ابن سينا بقرية من قرى ضواحي مدينة بخارى (٣٧٠-٤٢٨هـ)، وحين بلغ العاشرة من عمره كان قد حفظ القرآن الكريم، ودرس الكثير من الأدب وتعلم في صباه الحساب والفقه، كما درس المنطق ورياضيات إقليدس وفلك المجسطي، وشرع في دراسة الطب. وحين بلغ السادسة عشر من عمره عالج سلطان بخارى من مرض عجز الأطباء قبله عن علاجه، فقرّبه وأتاح له الاطلاع على مكتبته الضخمة، فأقبل عليها يقرأها كتابًا كتابًا.

وحين بلغ الثامنة عشر من عمره صار طبيبًا ناجحًا، وذاعت شهرته كطبيب. وقد اعتمد ابن سينا في الطب على الملاحظة في وصفه للعضو المريض وصفًا تشريحيًا وفسيولوجيًا فأفاده في تشخيص المرض. واعتمد في ممارسته الطبية على التجربة والاستفادة من تجارب من سبقوه، وهذا واضح في موسوعته الطبية الكبيرة والفريدة "القانون".

اكتشافاته في الطب

اكتشف ابن سينا كثيرًا من الأمراض، وكان أول من قال بـ"العدوى" وانتقال الأمراض المعدية عن طريق الماء والتراب، وبخاصة عدوى السل الرئوي. ويعتبر ابن سينا أول من وصف التهاب السحايا، وأظهر الفرق بينه وبين التهاب الحجاب الفاصل بين الرئتين، وأول من اكتشف الدودة المستديرة أو دودة الإنكلستوما قبل الطبيب البرتغالي "رونتيني" بأكثر من ثمانمائة عام، وأول من تحدث وبشكل دقيق عن السكتة الدماغية أو ما يسمى بـ"الموت الفجائي". واكتشف أنواعًا من المخدرات التي يجب أن تعطى للمرضى قبل إجراء العمليات الجراحية،

تخفيفًا لما يعانونه من ألم أثناء الجراحات وبعدها.

وله كثير من الاكتشافات العلمية والطبية يمكن متابعتها في تلك الدراسات التي تمت على كتابه الكبير "القانون" الذي تُرجم في وقت مبكر إلى اللغة اللاتينية، وظلت أوروبا تعتمد عليه في معالجاتها حتى بداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة.

براعته في الكيمياء

وقد أظهر ابن سينا براعة نادرة في إجراء الملاحظات والتجارب، ولم يقتصر ذلك على ميدان علم الطب، بل اعتمد عليها في الجيولوجيا وعلم الآثار العلوية، وعلم الهيئة وعلمي النبات والحيوان، وكلها تدخل في نطاق العلوم الطبيعية، كما برع في علم الكيمياء.

واتفق مع جابر بن حيان في نظرية العناصر، ثم خالفه -بحس العالم التجريبي- في إمكانية تحويل العناصر من واحد إلى آخر، وأنكر بذلك علم الصنعة -أي تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة- إنكارًا تامًّا؛ حيث ارتأى أن التركيب الأساسي للعنصر في الطبيعة لا يمكن تفكيكه وإعادة تركيبه، حيث اعتبر أن تقليد الطبيعة أمر عسير، بل متعذر على الإنسان. ولهذا لم يؤمن بنظرية استحالة العناصر أو التدبير والصنعة على الرغم من أنها كانت نظرية سائدة في عصره، وآمن بها كثير من العلماء والمفكرين.

وكان طبيبًا ماهرًا، وصيدلانيًّا بارعًا، ذائع الصيت. وقام بصنع الأدوية بنفسه التي أوردها في الجزأين الأخيرين من كتاب "القانون" في الطب.

هذا وقد أشار إلى عدد كبير من العمليات الكيميائية، كالتقطير والترشيح والتصعيد والاستخلاص والتشميع، واستعمل أجهزة مختلفة للوصول إلى طلبه، شأنه شأن أبي بكر الرازي، وذكر عددًا من المركبات الكيميائية منها ما كان من أصل نباتي أو حيواني أو معدني.

وعلى الرغم من اعتماده في دراسته للنبات والحيوان والطبيعة على كل من الكندي وأبي حنيفة الدينوري والرازي، إلا أننا نجد له كثيرًا من النظريات العلمية الصائبة في هذه العلوم، ونلمس بشكل واضح جهدًا تجريبيًّا كبيرًا يقوم به في هذا المجال.

إنكاره لعلم الصنعة

لقد درس ابن سينا تكوين المعادن دراسة مستفيضة، وقد أدته دراسته إلى تحديد موقفه من إمكانية صناعة الكيمياء أو عدم إمكانها، إذ إن صناعة الكيمياء -كما يقول ابن خلدون- "قائمة عند الباحثين فيها على حلّ المعادن السبعة المنطرقة، وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين، وهي تختلف فيما بينها بالفصول، أي إنها كلها أنواع قائمة بأنفسها".

وحين أنكر ابن سينا إمكانية علم الصنعة، لم ينكر العمليات الكيميائية الكثيرة والمشروعة، مثل التبخير والتصعيد وغيرها من العمليات التي قام هو نفسه بإجرائها، ولكنه أنكر إمكان تحويل معدن إلى معدن آخر. فقد تفشت نظرية تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة في زمنه، وأخذت بها مدارس علم الكيمياء أو الصنعة. وابن سينا لم ينكر التجارب الكيميائية، ولم يعارض في تحليل الأجسام والمواد المعدنية إلى عناصرها الأولية لمعرفة بسائطها، فهو في رسالته "الإكسير"، يقسمها إلى تسعة فصول تبحث في الجوهر المختلط وفي طلب صنعته، وفي التركيب وفي غيرها من المعدنيات، وفي العمليات الكيميائية التي يمكن للباحث القيام بها من تفحص رسالته.

وقد تمكن من فهم التفاعلات الكيميائية التي تحصل للأجسام، ووصفها وصفًا دقيقًا يقوم على الملاحظة والمشاهدة بما كان يستحضره من معدنيات ومواد كيميائية، إذ إن النتائج التي كان يصل إليها كلها مستوحاة من تجاربه. فقد كان جادًّا في الكشف عن تلك التفاعلات، ولم يَفُتْه في هذا المجال أن يستخلص كل خواص العمليات الكيميائية وقوانينها.

ومن أهم هذه العمليات التي كان يسميها "تدابير"، والتي تُتخذ دائمًا لتحضير العقاقير: الطبخ، والشي والقلي، والتبخير، والتدخين، والتصعيد، والتذويب، والتليين، والإشعال، والتجمير، والتفحيم، وما يقبل ذلك وما لا يقبله، بالإضافة إلى التنقية والتشميع، والحل والعقد والتقطير والاستنزال.

hiragate.com

ولا أدل على انخراط ابن سينا في علم الكيمياء، وبراعته في ممارسة عملياته وتجاربه من شهادة "إدوارد فابر" في كتابه "نوابغ علم الكيمياء"، حيث يذكر أن ابن سينا لم يكتف باستخدام الطريقة المنطقية لشرح بعض النقاط الغامضة في مؤلفات أسلافه في علم الكيمياء؛ بل أجرى تجارب كثيرة في ميدان الكيمياء، مثل تعيين الوزن النوعي لمعادن كثيرة ومواد كيميائية عديدة. كما قام بدراسة مفصلة لخواص بعض المواد الكيميائية والأحماض. فهو أول من شرح طريقة إعداد زيت الزاج أو حامض الكبريت (Acid) والكحول، وتقديم خواصهما بالتفصيل. ويؤكد على ذلك "بنجمين لي جوردن" بقوله: "هناك إجماع بين مؤرخي العلوم، أن ابن سينا ليس فقط أول من وصف زيت الزاج والكحول، ولكن هو أول من ابتكر طريقة إعدادهما".

وفي طبيعيات الشفاء -الموسوعة الفلسفية والطبيعية لابن سينا- يشير إلى هذه العمليات بالتفصيل، كما يشير إلى عملية الانصهار الكيميائي للأجسام وللمادة الكيميائية الكفيلة بتحقيق ذلك. وفي رأيه أن الأجسام (المعادن) لا تنصهر من الداخل، أي لا تنحل كيميائيًا، وإنما هي تتفكك وتنصهر بفعل عوامل طبيعية خارجية وهي الحرارة. ويراد بالجوهر في نصه، المادة التي من شأنها أن تسمح بعملية الانصهار، وهي تقابل في الكيمياء الحديثة العنصر الكيميائي الفاعل. ويفرق ابن سينا بين موضوع الانصهار الكيميائي وبين مادته، فالعملية الكيميائية تتوقف على هذين الأخيرين مع بعضهما البعض، وهما اللذان يجعلان الأجسام (المعادن) قابلة للتشكل والتركيب الكيميائي. ومن هنا يرى ابن سينا أن كل الأجسام أو المعادن تحتفظ بعنصرها الكيميائي الذي تتركب منه، أي تحافظ على طبيعتها ونوعها إذا ما تعرضت إلى عملية تفاعل كيميائي، إذ قد تطرأ التبدلات والتغيرات التي تخص حجمها وسمكها، ولكنها لا تفقد عنصرها الكيميائي الذي تتركب منه كالنحاس والفضة، فلا يمكن أن ينقلبا إلى ذهب، ولا يمكن أن يتغيرا أو يستحيلا في طبيعتهما. ومن هنا كان إنكاره لعلم الصنعة.

وقد كانت هناك مدرستان فيما يتصل بهذا العلم،

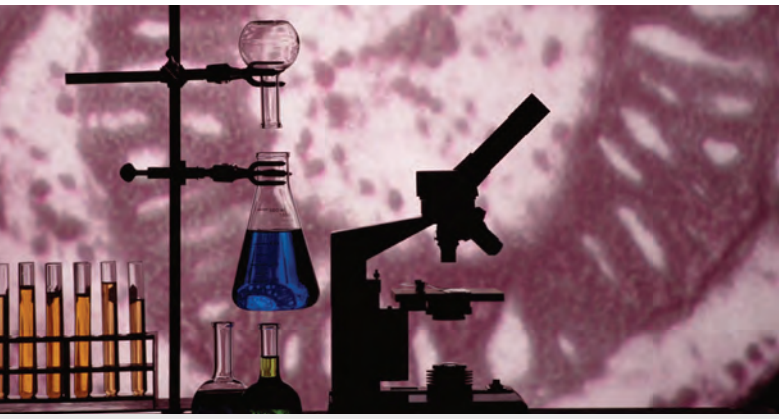

لم يكتف ابن سينا باستخدام الطريقة المنطقية لشرح بعض النقاط الغامضة في مؤلفات أسلافه في علم الكيمياء؛ بل أجرى تجارب كثيرة في ميدان الكيمياء، مثل تعيين الوزن النوعي لمعادن كثيرة ومواد كيميائية عديدة.

فريق منهما يرى إمكان تحويل معدن خسيس إلى معدن نفيس كالذهب، وفريق آخر ينكر هذا التحويل، وقد كان الرازي والفارابي وجابر بن حيان من الفريق الذي يرى إمكان ذلك. وقد ذكر جابر بن حيان أن أسرار الطبيعة قد تمتنع على الناس لأحد سببين؛ فإما أن يكون ذلك لشدة خفائها وعسر الكشف عنها، وإما أن يكون ذلك للطافة تلك الأسرار حيث يتعذر الإمساك بها. وسواء أكان الأمر هو هذا أو ذاك، كان في وسع الباحث أن يلتمس طريقًا إلى تحقيقه، فلا صعوبة الموضوع ولا لطافته ودقته تجيز للعلماء أن يتراجعوا عن البحث فيه. ومن هنا يجعل "جابر بن حيان" الفكرة الرئيسة في بحوثه الكيميائية هي استحالة المعادن وهو ممكن في نظره؛ لأن للمعادن مقوّمين أساسيين هما الكبريت والزئبق، وهما قد تكونا منذ قديم الزمان في جوف الأرض من العناصر الأساسية الأربعة. وحيث إن كل معدن ما هو إلا تركيب من زئبق وكبريت بنسب متفاوتة، والذهب معدن غني في الزئبق فقير في الكبريت، بينما يتوفر الكبريت في الحديد أو في أي معدن آخر خسيس، إذن يمكن تحويل الثاني إلى الأول بالإكسير الذي يبدأ تركيبه من مزيج يشمل عنصري الكبريت والزئبق بنسب معينة محددة.

ويذكر المستشرق "هوليمار" أن الرازي قد صنف كتابًا في تفنيد المشككين والرد العنيف عليهم. وكان من المشككين بهذه الفكرة المترجم "حنين بن إسحق" وبعض العلماء والفلاسفة الذين سيكون على رأسهم

hiragate.com

ابـن سـينا، الـذي تنـاول بالتفصيـل عملية توليـد الفلزات والمعادن ووصفها في كتابه "الشفاء"، وكذلك في الجزء الثاني من "القانون".

العلماء وابن سينا

دارت بيـن ابـن سـينا والبيرونـي مناقشـات واسـعة حول هذا الموضوع، وقد كان للبيروني أيضًا إسـهامات كبيرة فـي علم المعـادن خاصة في كتابه "الجماهر" الذي حدد فيـه كثيـرًا مـن الأوزان النوعية لهذه المعـادن والجواهر. حيـن يقسـم ابـن سـينا المعـادن إلـى أربعة أقسـام، وهي الحجـارة، المـواد القابلة للانصهار، الكباريت، الأملاح، نجده يسـلك مسـلك "جابـر بن حيان" مـن حيث تكوين المعـادن. وقـد جـاءت نظريته في هـذا الموضوع مطابقة لنظرية جابر إلى حد كبير، وفي ذلك يقول: "إن المعادن كلهـا تتكـون نتيجـة لاتحـاد الزئبـق بالكبريت أو أجسـام مشابهة لهما، فإذا كان الزئبق نقيًا واتحد بالكبريت النقي الممتاز، كان الناتج فضة".

ويحصر ابن سـينا عملية التكوين الكيميائي للمعادن على أساس خصائص وصفات كل من الكبريت والزئبق مـن حيـث النقـاوة وعدمها، فـإذا كان الكبريـت غير نقي والزئبـق كذلـك، فإنهما ينعقدان ليكونـا النحاس، ونفس الشـيء إذا كان الزئبق فاسـد ترابيًا يعوزه التماسـك، فإن الحاصل يكون حديدًا.

ولكن إذا كان ابن سينا يتفق وجابر في نظرية تكوين العناصـر، فإنـه يخالفـه في عمليـة تحويل المعـادن قصد الحصـول علـى الذهـب والفضة من المعادن الخسيسـة. وإذا كان ابن سينا يعتمد في التحليل والتركيب الكيميائي علـى كل المـواد النباتيـة والحيوانيـة والمعدنيـة مثـل مـا يفعـل جابـر بن حيـان، فإنه لم يعتمد في وصف العناصر علـى التركيـب الداخلي أو التحويـل الجوهري للعنصر، بقدر ما اعتمد في هذا الوصف على الخصائص الطبيعية أو الفيزيائية، أو البنية الذاتية للعنصر في الطبيعة، وبذلك عمد إلى التجربة واستخلاص النتائج مخبريًا.

منهجه في البحث

اعتمـد ابـن سـينا في دراسـته وتحليلـه المـواد الكيميائية وعلـى الملاحظـة التجريبية، أما التركيـب الكيميائي فقد يصل إليه عن طريق القياس، ولذلك ليس غريبًا أن ينتهي إلى النتيجة العلمية الدقيقة والصحيحة معًا -وهي "عدم إمـكان تحويـل المعـادن الخسيسـة إلـى معادن نفيسـة"- وإن كان يسـلّم -كمـا يقول الفخر الـرازي- فقط بإمكان صبـغ النحـاس بصبغ الفضـة، والفضة بصبـغ الذهب، وأن يُزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص. ويوضـح ذلك في رسالة الإكسير؛ حيث نجد فيها فرقًا بين تحويل الجوهـر مـن معدن إلى آخر وبين إصبـاغ المعادن، وهو ما يؤكد عليه في طبيعيات الشـفاء، حيث يقول: "فيجب أن تعلـم أنـه ليـس فـي أيديهـم أن يقلبـوا الأوضـاع قلبًـا حقيقيًـا، لكـن في أيديهم تشـبيهات حسـية حتـى يصبغوا صبغًـا أبيض شـديد الشـبه بالفضة، ويصبغوه صبغًـا أصفر شـديد الشـبه بالذهـب، وأن يصبغـوا الأبيـض أيضًـا أيّ صبـغ شـاءوا حتى يشـتد شبهه بالذهب أو النحاس، وأن يسلبوا الرصاصات أكثر ما فيها من النقص والعيوب، إلا أن جواهرهـا تكـون محفوظة، وإنما غلب عليها كيفيات مستفادة بحيث يغلط في أمرها".

وهكـذا أنكـر ابـن سـينا إمـكان التحـول الكيميائي (Chemical Transmutation) بين معدن وآخر، كما يؤكد على ذلـك مـؤرخ العلم "جورج سـارتون" في مقدمته. وعلى ذلك تكون أعمال الكيميائيين عنده، أعمالاً باطلة شأنها في ذلك شأن أعمال المشتغلين بالتنجيم، إذ إن ما يخلقه الله تعالى بواسطة الطبيعة هنا، تعجز عنه الصناعة. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس /مصر.

المراجع

(١) الشـفاء (الطبيعيـات)، لابـن سـينا، تحقيـق د. محمـود قاسـم، دار الكتاب العربي، القاهرة عام ١٩٦٩م.

(٢) النجاة، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، القاهرة عام ١٩٥٤م.

(٣) رسالة الأكسير، تحقيق أحمد عطاس، إسطنبول عام ١٩٥٣م.

(٤) إخـراج مـا في القوة إلى الفعل، لجابر بن حيان، نشـر بول كرواس، الخانجي، القاهرة عام ١٩٣٥م.

(٥) ابـن سـينا وكيميـاؤه، فاضل أحمـد الطائي، مجلـة المجمـع العلمي العراقي، ج٢٥، بغداد عام ١٩٧٤م.

(٦) المنهـج التجريبـي عنـد ابـن سـينا، لبـركات محمـد مـراد، المجلـة الفلسفية المصرية، العدد:٣، عام ١٩٩٤م.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

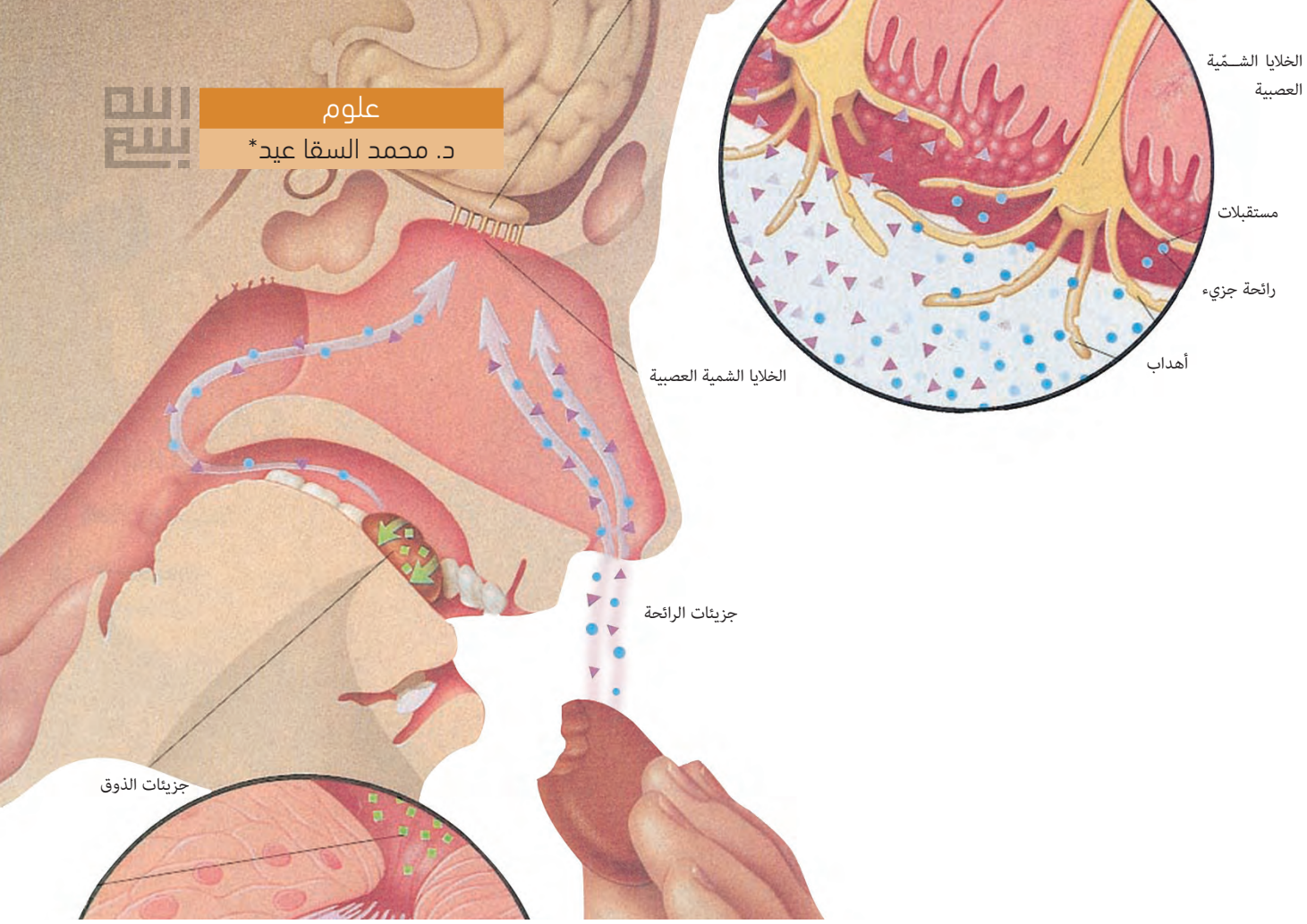

كيف يميز الأنف بين الروائح؟

إن لحاسة الشم أهمية كبيرة في حياة كلٍّ من الإنسان والحيوان. فعن طريقها -مثلاً- يستطيع الإنسان أن يتعرف على الطعام الجيد فيقبل عليه، أو الطعام الفاسد فيتحاشاه، وعن طريقها أيضًا يستطيع التمييز بين الروائح الذكية التي تنبعث من الأزهار أو العطور، والروائح الكريهة التي تتصاعد من البِرَك والمستنقعات الراكدة أو غيرها.

ولا تقتصر هذه الحاسة على الإنسان وحده، بل إن هناك من الحيوانات ما يتفوق عليه بصورة ملحوظة في هذا المجال. ففي الغابات مثلاً -حيث يكون الصراع رهيبًا بين الحيوانات المفترسة والفرائس التي تتغذى عليها- تلعب حاسة الشم دورًا رئيسًا في حياة هذه الحيوانات على اختلاف أنواعها. وتعتبر أعضاء الشم من أهم الأعضاء الحسية، وهي تلعب دورًا هامًّا في حياتنا، وفي حياة الحيوانات، حيث تقوم بإمدادنا بإشارات معينة عن طريق الهواء الذي نستنشقه.

وبرغم أن القدرات الشمّية للإنسان لا تصل إلى قدرات بعض الحيوانات -مثل الكلاب والقطط- إلا أنها عظيمة وهامة جدًّا في حياتنا، ومثال ذلك الرابطة بين الأم وطفلها الرضيع؛ فالطفل يستطيع أن يميز رائحة ثدي أمه من أيّ ثدي غريب آخر، ويمكن للأمهات أن يميزن أطفالهن من رائحتهم.

إن أنف الإنسان مليء بالعجائب والقدرات، ولعل أكثر الأنوف التي تلفت الانتباه، هي أنوف خبراء الروائح والعطور؛ حيث اكتسب بعض هؤلاء الخبراء القدرة على تمييز حوالي عشرة آلاف رائحة، ويمكنهم تمييز أنواع زيت اللافندر من بعضها، بل والبلد الذي زرع فيه. وقد أوضحت الدراسات التشريحية المقارنة

إن الأشخاص المصابين بمرض فقدان حاسة الشم يعانون من فقدان الشهية للطعام، مما يؤدي إلى فقدان الوزن والهزال، وأخطره عدم اكتشاف الغازات السامة.

أن المساحة الشمّية في التجويف الأنفي في الإنسان، تبلغ حوالي ٣ سم٢ على كل من الجانبين، وكل جانب من تجويفي الأنف يحتوي على ٥ مليون خلية حسية شمّية، لكن مساحة هذه المنطقة في الكلاب، تبلغ ١٨ سم٢ وفي القطط ٢١ سم٢.

وهذا يبين أن جهاز الشم في الإنسان أقل حجمًا من المشاهَد في العديد من الحيوانات الفقارية.

ولعل أوضح مثال على ذلك، هو ما يشاهَد في كلاب الصيد أو الكلاب البوليسية التي تستخدم في التعرف على الجناة أو المجرمين، حيث تعتبر قدرة الكلاب على تمييز الروائح المختلفة من الخوارق التي لا يستطيع الإنسان تفسيرها بصورة مقبولة؛ فهي تستطيع أن تميز بين رائحة إنسان معين، ورائحة مئات آخرين من البشر لكل واحد منهم رائحته المميزة، إذ يكتفي أحد هذه الكلاب المدربة بأن يشم أي شيء يتعلق بهذا الإنسان المجهول فينتقيه من بين المئات.

لكن هل يعني ذلك قلة اعتماد الإنسان على حاسة الشم؟ ربما يعتقد البعض أنه يمكننا الاستغناء عن حاسة الشم، إلا أن الأشخاص المصابين بمرض فقدان حاسة الشم يعانون من مشاكل حادة، منها فقدان الشهية للطعام، مما يؤدي إلى فقدان الوزن والهزال، وأخطرها عدم اكتشاف الغازات السامة.

إن هذا التأثير يبدو مألوفًا لنا عندما نصاب بالزكام؛ حيث إن المخاط الذي يغطي الطبقة الشمّية في الأنف، يفقدنا الإحساس بمذاق الطعام؛ لأنه يوجد اتحاد وامتزاج بين حاستي التذوق والشم. وعلى النقيض من ذلك فإن الأشخاص الذين يعانون من السمنة ولا يتوقفون عن تناول الطعام رغم امتلاء معداتهم، حيث يسيطر عليهم إغراء حاسة الشم القوية للأطعمة الشهية فيزداد إقبالهم على تناول الطعام. ويفكر العلماء الآن في الوصول إلى مركب كيميائي يمكن نثر رذاذه داخل الأنف ليوقف حاسة الشم مؤقتًا، فيوقف إغراء رائحة الطعام بالمزيد من الأكل.

إن حاسة الشم في الواقع هي حاسة التذوق عن بُعد، وكما أن أعضاء التذوق في اللسان تنتبه بواسطة مواد نتناولها في الفم، كذلك فإن الأعضاء الشمّية تنتبه بواسطة مواد طيارة نستنشقها من خلال الأنف.

كيفية شم الروائح المختلفة

تعتبر حاسة الشم أكثر غموضًا من الحواس البشرية الأخرى، كما أن المعلومات المتعلقة بها، أقل بكثير عما هو معروف عن تلك الحواس. وتختص هذه الحاسة

تستطيع الكلاب أن تميز رائحة إنسان معين من بين مئات الروائح، أي يمكن للكلب أن يشم شيئًا يتعلق بإنسان ما، فينتقيه من بين المئات.

hiragate.com

إن المساحة الشمّية في التجويف الأنفي في الإنسان تبلغ حوالي ٣ سم٢، لكن هذه المساحة في القطط تبلغ ٢١ سم٢، مما يعني أن جهاز الشم في الإنسان أقل حجمًا من الحيوانات الفقارية.

بالتعرف على مختلف الروائح التي تنبعث من الأشياء العديدة التي تحيط بنا في كل مكان، وعليها التمييز بينها.

وتعتمد هذه الحاسة على نوع خاص من الخلايا توجد داخل الأنف وتُعرَف بـ"الخلايا الشمّية"، وتتجمع النهايات العصبية المتصلة بهذه الخلايا، ليتكون منها زوج من الأعصاب تسمى "الأعصاب الشمية"، وتخترق هذه الأعصاب الحاجز الأنفي في الجمجمة العظمية، لتصل إلى "المنطقة الشمّية" في المخ.

إن قدرات تمييز أضعف الروائح تختلف من شخص لآخر، ومثال ذلك أن القدرة على تمييز رائحة البيض الفاسد (سلفيد الهيدروجين) تختلف بمقدار ٤٥ درجة من شخص لآخر، كما يمكن للإنسان أن يميز بعض الروائح في تركيزات صغيرة جدًّا مثل رائحة "ميثيل الميركابتان"، وكذلك "رابع كلوريد الكربون" الذي يتلف الكبد.

وتعتمد الكفاءة في تمييز الروائح على ثلاثة عوامل هي: التعود، والارتباط الشديد بين الرائحة واسمها، ورد فعل الشخص الذي يشم. ولقد وجد العلماء أن الأشخاص يمكنهم التمييز بين ١٦ رائحة، ولكن مع التدريب يمكن تمييز عشرات الروائح.

ولا تتوقف قدرات الشم على مجرد اكتشاف الفروق بين الأنواع المختلفة ودرجة تركيزها، بل تتعدى ذلك إلى معرفة الاتجاه الذي تأتي منه الرائحة، وإلى تحديد الفرق بين مرورها على إحدى فتحتي الأنف بالنسبة للأخرى، وهناك رأيان لتفسير هذه الظاهرة، أحدهما أن الجزيئات المختلفة تمر عبر الغشاء المخاطي المغطي للخلايا العصبية الشمّية بسرعة مختلفة، ويرجع ذلك إلى سرعة ذوبان الروائح. وأما الرأي الآخر هو أن كل نوع من الروائح ينبه نوعًا معينًا من المستقبلات.

وقد وهب الله تعالى فاقدي البصر بعض العوض بالاعتماد على الروائح في تمييز البيئة المحيطة، لكي يحفظوا أنفسهم من الخطر، وذلك باكتشاف الروائح التي تهددهم، مثل رائحة احتراق محول كهربائي.

كذلك تلعب حاسة الشم دورًا هامًّا في العلوم الطبية؛ فالطبيب الجيد يمكنه أن يشخّص أنواعًا عديدة من الأمراض، بداية من الحمى الصفراء ومرض السكر حتى الفشل الكبدي، من رائحة المريض.

والجدير بالذكر أن حاسة الشم تضعف بسرعة، وهذا مفيد من جهة، ويدعو إلى الحرص من جهة أخرى. فعندما يتعرض الإنسان لرائحة ما، فإن قدراته على تمييزها تختفي بعد برهة، وذلك ضروري لكي تفسح المجال للإحساس بنوع آخر من الروائح. وعندما تقابل شخصًا ما، فإنه يمتدح رائحتك الجميلة، لكن كثيرًا ما يتعرض الناس للاختناق بالغازات السامة في الحمام، أو في الأماكن المغلقة التي يدخنون فيها أو يوقدون فيها النار، لأن إحساسهم بالخطر ينعدم لتوقف حاسة الشم.

لا شك أن الله تعالى خلق حاسة الشم لكي يلفت أنظار بني البشر لفتة بسيطة، حيث إنها تحتوي على كثير من العجائب والمعجزات، وتضم الآلاف من التركيبات الدقيقة، والجسيمات العجيبة، ويؤدي كلٌّ منها عمله في تناسق وانسجام، مما لا يترك مجالاً للشك في أنها صممت على أحسن صورة وأدق تركيب. كما لا شك أن في هذه الدقة الفائقة في التصميم والإنتاج، إشارة واضحة إلى جلالة خالقها وجماله. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiragate.com

فؤاد النفطي* - فرج إبراهيم**

بين الواحد والألِف

قراءة تأويلية للأعداد والأحرف الأبجدية

يمثل الخط العربي أيقونة لامعة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وركيزة من ركائز هويتها. فالمتأمل في إبداعات الخطاطين يمتع العين والعقل معًا، تارة بجماليَّة الحركة المندسَّة في كل حرف، وأخرى بما يختاره هؤلاء المبدعون من الحِكم ومن آي القرآن يزوِّقون بها اللوحات، والرسائل، والكتب، والمعمار، كدليل على امتداد حضارة لا تقبل الاندثار.

ولعل من دواعي الفضول العلمي والشغف بالتاريخ أن يتساءل المرء عن علاقة الخط العربي بالرياضيات، أو بصورة أدق، عن علاقة الحرف العربي بالعدد؛ هل هذه العلاقة تحكمها الهندسة والمنطق، أم الفلسفة والعرفان، أم الزوجان معًا؟

للإجابة عن التساؤلات السابقة، ارتأينا أن نبحث أولاً في ماهية العدد وبُعده الفلسفي، وذلك من خلال التَّمعُّن في النصوص الرياضية القديمة، وآراء رياضيي الحضارة العربية الإسلامية.

البُعد الفلسفي للأرقام

- **الواحد:**

نجد في النصوص القديمة أن الواحد هو رمز البداية، وكلمة "Univers" التي أصلها اللاتيني "Universum" والتي تستعمل للتعبير عن الكون، تعني حرفيًّا "الرجوع إلى

الواحد" (Turned into one). وقد اشتهر الفيثاغوريون بعبارة "كل شيء عدد"، وذهب اليونانيون القدامى إلى أن الواحد هو أصل الأعداد جميعًا، وهو رمز العقل لأنه ثابت.

أما "الخوارزمي" صاحب "مفاتيح العلوم"، فإنه لا يعتبر الواحد عددًا وإنما هو ركن العدد، ويعرَّف العدد على أنه الكثرة المتركبة من الآحاد، ومثال على ذلك: الخمسة هي مجموع الثلاثة والاثنين، والثلاثة هي مجموع الواحد والاثنين، والاثنان هي مجموع الواحد والواحد، ومن ذلك نستنتج أن الخمسة هي في الأصل كثرةُ الواحد، والواحد في الأرثميطيقى بمثابة النقطة في الهندسة لأنه لا ينقسم.

وفي ذات الصدد، يشبه العرب الواحد في الحساب بالنقط في الهندسة لأنه لا ينقسم، وكما أن الواحد لا جزء له ولا مثل له في العدد -وهو محيط بالعدد كله ويعده- فإن الله كذلك لا مثل له في خلقه ولا شبه، أما العدد الصحيح بالنسبة إليهم، فإنه يتزايد بلا نهاية ويبتدئ من أول الكثرة وهو الاثنان. ولعل الخلفية الدينية تحكمت في اعتبار كل عدد هو من الواحد، والواحد ليس عددًا لأنه مقرون بالذات الإلهية التي لا تقبل الكثرة والتعدد.

• **الاثنان:**

هو عدد زوجي أوَّليٌّ (أي لا يقبل القسمة إلا على نفسه وعلى الواحد)، وهو العدد الوحيد الزوجي من بين الأعداد الأوليَّة. ونجد في النصوص العبرية أن الاثنين يمثل الحكمة، أما اليونانيون القدامى فيعتبرونه رمزًا للمُذكر، وهو أيضًا رمزُ الظن لأنه تردّدٌ بين طرفين. وعن الاثنين يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد الكاتب: "الاثنان بمنزلة الخط، لأنهما لا ينقسمان إلا مرة واحدة كما أن الخط لا ينقسم إلا طولاً".

وإننا نجنح إلى القول بأن مقولة "اعرف نفسك تعرف خالقك" هي في المخيال الإنساني تجلٍّ للعلاقة الجدلية بين معرفة الإنسان -الذي هو خليفة الله في أرضه- لنفسه، وبين معرفته لعلَّة العلل الذي هو خالقه، إذ إنه متى أدركنا ألَّا وجود للاثنين دون الواحد، أحالنا ذلك إلى نسبية قدرة الإنسان ومطلقية قدرة الخالق.

إن المدقق في حروف الأبجدية العربية، يجد أنها على مستوى الرسم سيمفونية يعزفها الألف، وكل لحن جديد هو بعثٌ لحرف جديد، أما الأرقام العربية فكلها عائدة إلى الواحد من حيث كثرتها وإلى الواحد والصفر على مستوى الرمز.

• **الثلاثة:**

هو رمز القدسية، ويتراءى لنا ذلك في المسيحية من خلال ثالوث الأب والابن والروح القدس، أما في الحضارة الفرعونية، فيتجلَّى من خلال أهرامات مصر الثلاثة (خوفو وخفرع ومنقرع)، كما نجد أن اليونانيين قد اعتبروه دليلاً على المؤنث، وهو أيضًا رمز الزواج عندهم. والثلاثة هي بمثابة السطح (أي كل ما له مساحة) لأن المثلث هو أبسط السطوح. والمثلث الذهبي في الهندسة، (زواياه: ٧٢، ٧٢، ٣٦) له خاصيات جمالية، إذ إنه إذا تكرر عشر مرات كوّن ٣٦٠ درجة، وإذا قسمنا طول ضلعه الأكبر على الأصغر وجدنا العدد الذهبي.

• **الأربعة:**

إضافة إلى الجهات الأربع (جنوب، شمال، شرق، غرب)، فإن هذا الرقم يكتسب أهمية تأويلية من خلال ارتباطه بالعدد ٤٠، الذي يمثل في المخيال الإنساني رمزًا للاكتمال. إذ إننا نجد أن الأنبياء عادةً ما يُبعثون في سن الأربعين؛ النبي موسى عليه السلام مكث -مثلاً- فوق الطور ثلاثين يومًا وأتمَّها بعشرة، وعدد السنين التي تاه فيها بنو إسرائيل في صحراء سيناء كان أربعين سنة، وهذا العدد -حسب نص الحديث الشريف- من الشروط التي لطالما ارتبطت بنَيلِ الحكمة؛ إذ إن "من اتقى الله أربعين يومًا جرت الحكمة على لسانه".

• **الخمسة والستة والسبعة:**

أما عن بقيَّة الأرقام، فنكتفي بالذكر أن الخمسة هو عدد صلوات المسلمين، وأنه في الأسطورة يدفع الحسد والعين. أما الستة فهو عدد الأيام التي خلق فيها الله الكون، ويُعدُّ في الرياضيات عددًا تامًّا،

hiragate.com

والسبعة يكتسب قدسية في مخيال العديد من الشعوب؛ فالسماوات سبعٌ، والأراضون سبعٌ، والطواف حول الكعبة في الحج عند المسلمين سبع مرات.

• **بين الواحد والصفر:**

إلى جانب المكانة التي يحظى بها الواحد والصفر في تكوين الأعداد، تمكن الإنسان من اكتشافٍ باهر قوامه الزواج بينهما، إذ إن تقنية الحواسيب وما لفّ لفّها، تقوم أساسًا على تشفير المعلومة بالاعتماد على نظام العد الثنائي، فمثلاً إذا كان الرمز ١٠٠ يمثل في النظام العشري العدد مائة، فإنه في نظام العد الثنائي يمثل رمز الرقم ٤، ولو تأملنا الحديث النبوي الذي يشير إلى أن العلم حَرفان، فقد نغامر في تأويل ذلك بأن هذين الحرفين (يُقصد بهما الرمزان ٠ و ١) اللذين مكّنا الإنسان من لغة جديدة يحكي بها علومه يكتبها ويخزنها.

قراءة تأويلية للأحرف العربية

• **مكانة الألف في الخط العربي:**

إن المتأمل في محتوى مخطوطة بضاعة المجوّد في الخط وأصوله للشيخ الإمام محمد بن الحسن السنجاري، يجد دقةً في وصف كاتبها الحرف وخصوصياته، إضافة إلى إشارته إلى خيط رابط بين ماهية حروف أبجدية لغة الضاد.

فما هي خصوصية كل حرف؟ وما علاقة هذه الخصوصية بالبعد الفلسفي والعرفاني الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث؟ وهل من علاقة مع أسرار العدد التي تطرقنا إليها أعلاه؟

• **بين الألف والواحد:**

يقول الشيخ الإمام محمد بن الحسن السنجاري متحدثًا عن الألف:

الألف المنتصب المقوّم
القائم المعتدل المسلّم
فما له حرف إليه ينسب
كذاك فهو مفرد مغترب

أما محمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر في القرن التاسع ميلادي فيقول: "كل الأعداد واحد والواحد ليس عددًا"، فكأن الواحد والألف اشتركا في حالة الاغتراب هذه كما يشتركان في كون كل منهما أصلٌ لفرعٍ ممتد، فإن كانت الأعداد فروعًا للواحد، فإن الحروف كما يقول عنها السنجاري:

وكل خط راجع إلى الألف
من أصله وغيره قد يعترف

أي إذا كان إجراء العمليات الحسابية على الواحد يعطينا بقية الأعداد، فإن التغيرات الهندسية على الألف تنتج عنها بقية الحروف، فما الخط إلا مجموعة نقاط.

أما عن الباء فيقول السنجاري:

وقدر انسطاحها كالألف
فافهم لما قد قلته واعرف
لأن فيها اليبس والرطوبة
وهكذا قد وردت مكتوبة

أما عن علاقة الألف بالنقطة فيقول صاحب بضاعة المجود:

يشبه للراهب في محرابه
السابل الشعر على أثوابه
هي سبعة من نقط فاكتب
وأسبله كالحية سلبا تُصب

ويقصد بأن حرف الألف يتكون من سبعة طوابق كل طابق قوامه نقطة، ولعل هذا يحيلنا إلى ما ذكرناه آنفًا عن العدد سبعة والسماوات السبع وعن ارتباط الألف بالله كقول سهل التستري الصوفي (ت ٨٩٦ هـ): إن الألف أول الحروف وأعظم الحروف، وفيه الإشارة إلى الله الذي ألَّف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء، لقد غدا الألف مقياسًا أساسيًّا لبلورة موازين فن الخط العربي.

إن العلاقة بين الألف والباء على مستوى الرسم، هي -كما يحددها البيت الأول- من أرجوزة السنجاري، وأما خصوصية هذا الحرف فيحددها البيت الثاني، إذ إن فيها اليُبْس والرطوبة. ونحن نذهب إلى أن الانتقال من الألف إلى الباء هو انتقال من العمودي إلى الأفقي، أي إنه نوع من النزول، وكأن الألف أسرار السماء العالية التي أبت إلا أن تلتحم بخصوصية الأرض اليابسة الرطبة. ولعل المتأمل في شكل الحروف يرى التناغم بين الخالق والإنسان، فكأن حرف الباء الذي هو ألفٌ ممدد وتحته النقطة، كلما رفع رأسه تبدى له الألف مهيبًا يظلها بظله.

hiragate.com

الصورة نفسها تلوح لها مقاطع بعض الأدعية التي تصف الله -مثلاً- بأنه في دنوه عال وفي علوه دان، تمامًا كما يتراءى لنا الألف وهو واقف لا يبعد كثيرًا عن بقية الحروف، وإذا كان ممددًا على صورة باء فهو ذو شأنٍ ورفعة من حيث إنه أول حروف البسملة، وأحيانا يلتف بها فيصبح جيمًا، هذا الحرف الذي يقول فيه السنجاري:

بل نصف ألف راكب لمثله
في نصف بيضة لحسن شكله

وتارة أخرى ينتصب نونًا والتي يصفها صاحب المخطوطة قائلاً:

شكل مدور بنصف دائرة
في رأسه سُنَينةٌ مقدرة

إن النون -استنادًا إلى مقاربة طوبولوجية رياضية- هو ألف والعكس بالعكس، إذ إن كل نقطة من النقاط التي تكوّنه، يمكن أن نجد لها نظيرًا من نقاط الألف وفقًا لتطبيق رياضي بين خطين، حيث إن كل خط هو مجموعة لا متناهية من النقاط. أما إذا اعتبرنا النقطة التي تعتليه إنسانًا، فإن انحناء النون متحدًا مع هذه النقطة يصيرها دائرة مكتملة كأن "نون" و"قلم" و"إنسان" ثالوث محدد ومصيري في هذا الكون الممتد.

قراءة تأويلية لكلمة "محمد"

يقول فرج إبراهيم: "إن الحرف في اللغة العربية جزء من كلمة تكونت بفعل ارتباط أحرفها ارتباطًا عضويًا بالمعنى، فالراء -مثلاً- في الكلمات التالية: فرّ، كرّ، جرّ، لها صورة الحركة التي تفرضها على الكلمة. كذلك شأن الدال في مدّ، عدّ، كدّ، فيها البذل، أما الباء فلها حرمتها لأنها أول حرف في القرآن الكريم، والجيم كانت كناية عن الصدر، والصاد هي مقلة الإنسانية، والهاء هي الهُويّة الإلهية عند ابن عربي، والميم كانت تعبيرًا عن الضيق".

لو تأملنا هذا التصنيف ونظرنا إلى كلمة "محمد" بعينٍ تأويلية ومقاربة حضارية، لوجدنا أن هذه الكلمة تصف حال شعوب لغة الضاد؛ فكأن "الميم" الأولى تشير إلى حقبة من الضيق ميزتها الجهل والفقر والترحال عاشتها هذه الشعوب كي تأتي "الحاء" من بعدِها أكثر انفتاحًا في إشارة إلى الانفراج الذي حصل بفضل مجيء النبي

إن الألف أول الحروف وأعظم الحروف، وهو الإشارة في الألف إلى الله الذي ألّف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء. والمتأمل في شكل الحروف يرى التناغم بين الخالق والإنسان، فكأن حرف الباء الذي هو ألفٌ ممدد وتحته النقطة، كلما رفع رأسه تبدى له الألف مهيبًا يظلها بظله.

محمد ﷺ وقيامه بثورة تأسيسية كسَّرت جميع الأصنام، وجعلت من شعوب هذه اللغة يبنون صرحًا من المعرفة والقيم الأخلاقية؛ ما جعلهم يسودون العالم ردحًا من الزمن ليس بالهين، لكن يبدو أن الموازين قد انقلبت على هذه الشعوب.. فقد عمت الدولة الإسلامية العديد من القلاقل منذ العشرية الثالثة من القرن الأول الهجري، ولعل هذا الضيق قد امتد زمنًا ليس بالقصير، والقرنان الأخيران هما خير شاهد على ذلك، لكن "الدال" في آخر كلمة محمد والتي لها دلالة البذل، قد تشير إلى أن هذه الحضارة سوف تزهر ويشع نورها في آخر الزمان، وهو ما تجسده إقامة العدل في آخر الزمان بعد استفحال الظلم والجور. ولعل أفضل ما يصف هذه الحقبة هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

هذا ويمكن أن نتأمل كلمة محمد من زاوية أخرى. إذ يمكن أن نستخرج منها الكلمات الآتية: مد، دم، حد، حمدٌ، مدح، مُح، ونحن نذهب في تأويل ذلك إلى أن أمر هذا النبي ﷺ هو أصل الأسرار "مُح"، وأنه عنوان للبذل والمد، وبفضله تعلم الإنسان حدوده بعد أن سالت دماء الرسول ومن معه من أجل ذلك، وتعلم أن ذلك من فضل الخالق عليه ولا بد من أن يقابله بالحمد والمدح في آن.

الحرف يكتسب سحرًا بفضل العدد

إلى جانب ما ذكرنا، تجدر بنا الإشارة إلى العلاقة بين الحرف والعدد العربيين، والتي تتمظهر -أحيانًا- في كلمات أو عبارات ذات أبعاد ميتافيزيقية، مثل كلمة

hiragate.com

"بدوح"؛ هذه الحروف الأربعة غالبًا ما تكتبها العرب أسفل عنوان الرسالة أو تنقشها على الخاتم، وهي من قبيل التمائم، ويعتقد الناس أن المسافر حين يحمل معه كلمة "بدوح" يستطيع السير طوال اليوم دون أن يشعر بتعب، وأنها تساعد المرأة على إتمام حملها بسلام. وما يهمنا في بحثنا هذا، هو أن هذه الكلمة تمثل الأعداد الزوجية التي يرى الناس أنها ميمونة وهي ٨٦٤٢ أو ٢٤٦٨، ولطالما ارتبط الحرف بالعدد في حساب الجمل كما يستعمل في تفسير آي القرآن.

النقطة في الخط العربي والهندسة

المستطيل والمعين هما من فصيلة متوازيات الأضلاع، أما المستطيل فميزته أن قطريه متقايسان وله زاوية قائمة، أما المعين فقطراه متعامدان وله ضلعان متتاليان متقايسان.. إذن فالمربع بجمعه لخواص الشكلين السابقين يكون أرقى أنواع متوازيات الأضلاع وأكملها، وهذا الأمر يجعل منه أكثر استقرارًا وجاذبية. وفي ربط هذه المعلومة الهندسية بالنقطة في الخط العربي، يقول الدكتور إياد حسين عبد الله الحسيني:

"فالنقطة المربعة هنا، هي أكثر الأشكال استقرارًا؛ فأضلاعها الأربعة متساوية وزواياها قائمة وقطراها متعامدان متساويان، وهي بشكلها البسيط والصحيح أكثر تعبيرًا عن الاتزان والصدق والقوة والتكامل أيضًا وأكثرها ارتباطًا بمفهوم التوحيد والعقيدة.. والنقطة تعني الثبات والاستقرار، وهي رمز من رموز الصوفية لأنها تمثل نقطة باء البسملة، وهي البداية عند كل أمر ذي شأن.. والنقطة ذات أهمية عند الخطاطين، إذ يبدأ بوضع النقطة قبل البدء بالكتابة؛ ليعرف منها عرض القلم ويقدِّر أبعاد الحروف وموازينها".

النقطة والدمعة

إن جذورنا العربية الإسلامية أبت إلا أن تذكرنا بشيء من الحزن، فاهتدينا إلى أن النقط التي تزين الخط العربي هي عبارة عن دميعات تنزل على الحرف أحيانًا (ت، ن، خ، غ)، وتنزل منه أحيانًا أخرى (ب، ي...) وكأننا بهذه الحضارة تُعلن عن طريق أحرف لغتها أنها حضارة البيان والدمع، حضارة لا تكتمل إلا من خلال التبادل بين الأعلى والأسفل، بين السماء العالية والأرض التي ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨).

الصفر والفراغ

يكتسب الفراغ بين الكلمات ذات الأهمية التي يكتسبها الصفر بين الأرقام، فمثلاً في جملة "بيتٌ هما فيه" إذا حذفنا الفراغ الذي بين التاء والهاء، صارت "بيتهما فيه" ويتغير المعنى تمامًا، أو إذا قلنا مثلاً "كما لك في عقلك نعمة" ثم حذفنا الفراغ الذي بين "كما" و"لك"، تصبح العبارة "كمالك في عقلك نعمة" والمعنيان مختلفان.

أما من ناحية العدد، فإننا نعلم أن ١٠٢ مختلف عن ١٢ بالرغم من أن الصفر يمثل قيمة اللاشيء، إلا أن دخوله بين الأرقام يسفر عن خلق عدد جديد، ولهذا السبب بات العدّ على طريقة النظام العشري، الطريقة المثلى في الحساب، وتراجع العد بالطريقة اليونانية التي تصبح ثقيلة إذا تجاوزنا المستويات الدنيا للعد.

الصفر والفراغ اللذان ارتبطا بالعدم، هما في واقع الأمر أداتان بهما يتم الخلق من العدم في روضة الأعداد كما في زمرة الحروف.

خلاصة

إن المدقق في حروف الأبجدية العربية، يجد أنها على مستوى الرسم، سيمفونية يعزفها الألف، وكل لحن جديد هو بعثٌ لحرف جديد كما يقول السنجاري: "وكل خط إليه عائد"، أما الأرقام العربية فكلها عائدة إلى الواحد من حيث كثرتها وإلى الواحد والصفر على مستوى الرمز.

ألا يكون العدد بذلك قد اتحد مع الحرف بفضل اشتراك الألف والواحد في ماهية البدء وإن اختلفت الأدوار؟ ■

(*) أستاذ وباحث أكاديمي في ابيستيمولوجيا الرياضيات، جامعة تونس المنار / تونس.

(**) أستاذ، خطاط وباحث أكاديمي في جمالية الخط العربي، جامعة سوسة / تونس.

hiragate.com

د. عبد الوهاب بوخلخال*

المنهاج النبوي
في بناء الشخصية الحضارية

للحب ثلاثة أسباب؛ الجمال والكمال والإحسان، ومن هذا المنطلق تعامل المسلمون مع شخصية الرسول ﷺ، ومن هذا المنطلق أيضًا وجدنا اهتمام العلماء بكل ما يجلي أمام المسلم المحب هذه الأسباب في شخصيته، فأنت تجد كتابات السيرة في أغلبها تدور حول هذه المعاني.

وكلها في النهاية غايتها أن تجلي محل القدوة في الشخصية النبوية، كي يتمكن المسلم من التحقق بمفهوم الاستقامة على الحق، إذ لا دليل إلى ذلك أوضح من شخصيته ﷺ، وإلى هذا يشير الحق ﷻ بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب:٢١).

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: "فالأصل: رسول الله أسوة، فقيل: في رسول الله أسوة، وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول ﷺ دون وصف خاص، ليشمل الائتساء به في أقواله، بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات".

الوظيفة البنائية للرسالة المحمدية

لا شك أن فهم سيرة الرسول إنما يتوقف على مدى إدراكنا للغاية من رسالته، والقرآن يرسم لنا غاية الرسالة المحمدية. وقد ذُكرت مقاصد الوظيفة النبوية إجمالاً في تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة. وهذه الوظائف تقتضي بناء شخصية المتلقي من جديد، وهي عملية بناء نفسي عسيرة ومتطاولة ودقيقة".

لقد بنى النبي ﷺ صحابته وتعهدهم بالرعاية كما يتعهد المزارع زرعه، فلا غرابة أن يصف القرآن الصحابة بالزرع، وأن يوضح للناس مراحل نموهم وتطورهم على يد المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾(الفتح:٢٩).

ولا غرابة أيضًا أن تُربط الرسالة النبوية بتربية وبناء الشخصية الإنسانية؛ لأن الإنسان هو المعني بها، ولا

يمكنه أن يتفاعل مع مقاصدها ما لم يُبْنَ بناءً خاصًّا يفي بذلك. وفي عملية البناء تتجه الأنظار إلى من يقوم على عملية البناء وهو هنا النبي ﷺ والمنهج المستخدم في البناء، وسمات الشخصية التي أنتجها البناء.

معالم المنهج النبوي في بناء الشخصية

هي ذاتها المشار إليها أعلاه (التلاوة، التزكية، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة)، فالمنهج -أساسًا- منهج رباني المصدر، رباني المفردات، رباني الغاية، ولذلك مَثُل الإسلام في تعامله وتطابقه مع الفطرة الإنسانية، فقد كان هو اللمسة المناسبة التي حركت فطرة الإنسان العربي، فنقلته في فترة وجيزة من حال إلى حال، وأخرجته من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، من هامش التاريخ إلى أن يكون في مركزه فاعلاً ومنتجًا للحضارة. وعلى هذا يعلق الشيخ أبو الحسن الندوي بقوله: "لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب".

وما معالمه؟ إن بحثنا له عن معالم تفصيلاً لن تكون في الحقيقة سوى انعكاس لربانيته، وهذه المعالم هي:

أ- الشمولية: ونعني بها النظرة الشاملة للنفس البشرية بكل أبعادها عقلاً وروحًا وجسدًا، فهو منهج لا يتعامل مع الإنسان ببعد واحد.

ب- التكاملية: فالأبعاد الملاحظة في النفس البشرية من خلال الشمولية، تتكامل في البناء النبوي ولا تتنافى، تتساند ولا تتصادم، فلا يجور طرف على آخر، ولا يهمل جانب لحساب جانب، كل ذلك محكوم بالقاعدة أو الميزان الذي نبه إليه النبي ﷺ كما في قوله لابن عمر رضي الله عنه: "صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينيك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا" (رواه البخاري).

ومن هنا وجدناه ﷺ يعالج ما يراه إخلالاً بهذه التكاملية، ويعتبر مخالفتها خروجًا عن المنهج الذي جاء به، كما في حديث الثلاثة الذين استقلُّوا عبادتهم، فقال لهم الرسول ﷺ: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (رواه البخاري).

فالمسألة لها ارتباط بالمنهج، وليست مجرد انحراف في السلوك، وانسياق وراء رغبة وإن بدت في ظاهرها خيّرة. يقول الحافظ ابن حجر تعليقًا على الحديث: المراد بالسنة الطريقة، لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، وطريقة النبي الحنفية السمحة".

جـ- الواقعية: فالنبي ﷺ وهو يبني شخصية الصحابة رضي الله عنهم، كان دائمًا يفعل ذلك من خلال الميزان القرآني الذي يتعامل مع الإنسان باعتباره إنسانًا.

وتحتفظ لنا كتب السنن والسيرة بنماذج متعددة من التعاملات النبوية، تُجلِي لنا هذا المعلم الخطير فتضعنا أمام المربي العظيم، وهو يلامس نفوس من يربيهم بلمسات تربوية غاية في العمق، لأنها تنطلق من واقعهم كبشر لترفعهم إلى الغايات السامية، فتراه ﷺ وهو يعامل تلك الأنفس في لحظات قوتها ولحظات ضعفها. ونكتفي بالإشارة إلى مثالين عن كل حالة:

١- في حال الضعف

المثال الأول: قصة الشاب الذي جاء للنبي ﷺ يطلب الإذن بالزنا، فوضع يده الشريفة عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فرجه"، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. (رواه أحمد)

إن وقفة تحليلية مع هذه القصة، تكشف بجلاء مدى واقعية النبي في علاج لحظات الضعف الإنساني أمام تسلط الشهوة وفوران الرغبة. ويمكن بحسب ما يسمح به المقام أن نشير إلى ما يلي:

في الحديث لمسات نفسية عميقة، راعى من خلالها النبي ﷺ واقع هذا الشاب الذي أتاه، وقد سدت الشهوة عليه مداركه، فلم يعد لميزان الحلال والحرام دور في ضبط رغبته، فليس من الحكمة ولا الواقعية -في هذه الوضعية- أن نخاطبه من منطلق "يجوز أو لا يجوز"، أو أن نتجاهل حالته بالإهمال أو القمع حفاظًا على الانضباط الاجتماعي والالتزام الأخلاقي الظاهري كما

hiragate.com

يسعى إلى ذلك بعض السطحيين غالبًا.

وهنا تكمن روعة العلاج النبوي وواقعيته؛ فلم يؤنب الشاب ولم يمنعه من الحديث، وإنما رحم ضعفه، وسعى لأن يجد حلاً ناجحًا لمشكلته عن طريق الحوار. وقد كان بإمكان النبي أن يبدأ بالدعاء له، وتنتهي القصة. ولكن المسألة هنا مسألة منهج يعلمنا من خلاله -صلوات الله وسلامه عليه- كيف نتعامل بواقعية مع مشكلاتنا ومشكلات من نربيهم.

المثال الثاني: قصة عن ضعف الإنسان، وبراعة المربي العظيم في احتواء هذا الضعف، ومساعدة صاحبه على النهوض وتجاوز الكبوة.

القصة رواها الطبراني عن جرير بن حازم قال: سمعت زيد بن أسلم يحدث أن خوّات بن جبير قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران، قال: فخرجت من خبائي فإذا أنا بنسوة يتحدثن فأعجبنني، فرجعت، فاستخرجت عيبتي، فاستخرجت منها حلة فلبستها، وجئت فجلست معهن، وخرج رسول الله من قبته فقال: "أبا عبد الله، ما يجلسك معهن؟" فلما رأيت رسول الله هبته فاختلطت، قلت: يا رسول الله جملٌ لي شرد، فأنا أبتغي له قيدًا فمضى واتبعته، فألقى إلي رداءه ودخل الأراك، كأني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ، فأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره، أو قال: يقطر من لحيته على صدره، فقال: "أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك؟" ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: "السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟" فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة، واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبي، فلما طال ذلك، تحينت ساعة خلوة المسجد، فأتيت المسجد فقمت أصلي، وخرج رسول الله من بعض حجره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين، وطولت رجاء أن يذهب ويدعني، فقال: "طول أبا عبد الله، ما شئت أن تطول، فلست قائمًا حتى تنصرف"، فقلت في نفسي: والله لأعتذرن إلى رسول الله ولأبرئن صدره، فلما انصرفت قال: "السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟" فقلت: والذي بعثك بالحق، ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال: "رحمك الله ثلاثا"، ثم لم يعد لشيء مما كان".

المسلم الذي رباه النبي ﷺ ليس عالة على الحياة، وإنما هو شخص منتج يقدّر الحياة حق قدرها باعتبارها مزرعة للآخرة، ويسعى دائمًا ليضيف إليها شيئًا ويترك فيها أثرًا من الخير وإن ظن أنه لن يستفيد من خيره أحد، أو أن الحياة ذاتها لن تستمر.

٢- في حال القوة

المثال الأول: دف نعلي بلال في الجنة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: "يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة"، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي، قال أبو عبد الله: دف نعليك يعني تحريك. (رواه البخاري)

المثال الثاني: ذَهبٌ لحسن ثنائك على الله ﷻ: عن أنس أن رسول الله ﷺ مر بأعرابي وهو يدعو في صلاته وهو يقول: يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتيمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه. فوكل رسول الله بالأعرابي رجلاً فقال: "إذا صلّى فائتني به". فلما أتاه وقد كان أُهدي للرسول ذهب من بعض المعادن، فلما أتاه الأعرابي وهب له الذهب وقال: "ممن أنت يا أعرابي؟" قال: من بني عامر بن صعصعة يا رسول الله، قال: "هل تدري لِمَ وهبتُ لك الذهب؟" قال: للرحم بيننا وبينك يا رسول الله. قال: "إن للرحم حقًّا، ولكن وهبت لك الذهب بحسن ثنائك على الله ﷻ". (رواه الطبراني)

hiragate.com

سمات الشخصية المتميزة التي بناها الرسول

إجمالاً يمكن القول بأن الشخصية التي بناها النبي ﷺ، هي الشخصية الحضارية التي استطاعت أن تتفاعل مع وحي السماء وتحمل النور لأهل الأرض.

يقول الشيخ الغزالي: "كان النبي يربي الجيل الذي يستمع إليه تربية خاصة. كيف؟! إنه مرسل للناس كافة، ومرسل لبني آدم ما بقي على ظهر الأرض منهم أحد، ولا نبوة بعد بعثته.

وهو عليه الصلاة والسلام، يدرك أنه لن يعمّر حتى يطوف القارات ويهدي العصور المتطاولة، فسبيله إلى إبلاغ رسالته أن يربي قادة يرثون الكتاب ويضيئون به المكان والزمان، ويؤدون عنه متطلبات العموم والخلود في رسالته. والمعلم الذي يهدي جماعة من الحيارى محدود الجهد دون غمط لفضله، ولكنه دون المعلم الذي يصنع أساتذة وينشئ نجوما حية".

أما تفصيلاً، فيمكننا أن نسجل السمات التالية:

١- الربانية: وهي السمة الأساس في الشخصية التي رباها النبي ﷺ، ونعني بها بروز الارتباط الوثيق بين الإنسان وخالقه عقيدة وتصورًا وسلوكًا.

فالصحابة صنيعة الرسول ﷺ أنبتهم بالقرآن إنباتًا، وأنشأهم على عينه، فكانوا ذلك الجيل الفريد الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً، وقد لا يتاح للبشرية في مستقبلها أن ترى له أيضًا مثيلاً.

يقول الشيخ الندوي: "ولم يزل الرسول يربيهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم، ولم تزل مجالس الرسول تزيدهم رسوخًا في الدين وعزوفًا عن الشهوات، وتفانيًا في سبيل المرضاة، وحنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفهمًا في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافًا وثقالاً، حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد، لا تزعجهم مصيبة ولا يبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة، لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم، قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسهم".

ونتبين هذه الربانية في مواقف عديدة حفلت بها سير الصحابة رضوان الله عليهم كتلك التي نجد فيها:

١- سرعة الاستجابة لأمر الله (قضية الخمر والحجاب)، وسرعة العودة عند الخطأ والمعصية وتقبل العقوبة طمعًا في المغفرة (قصة الثلاثة الذين خلّفوا)، وجعل الآخرة هي الغاية (مواقف الإنفاق والتضحية)، ويقظة الضمير وإن غابت رقابة القانون (ماعز الغامدية)، والعفة عند المغنم.

٢- المبدئية: ونعني بها في هذا المقام أمرين، الأول أن النبي ﷺ ربى الشخصية التي تجعل المصلحة في خدمة المبدأ، وتضحي عند الاقتضاء بالمصالح نصرة للمبادئ.

والثاني أنه ربط الذين يربيهم بالفكرة لا بالأشخاص ولو كان شخصه الكريم، وهذه في الحقيقة تربية قرآنية، أعلنها القرآن وأكدتها ممارسته ﷺ في واقع تعامله مع أصحابه، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٤).

٣- الإيجابية: فالشخصية التي رباها الرسول ﷺ إيجابية في تعاملها مع أوجه الحياة المختلفة، وهذا هو مضمون قوله ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له" (رواه مسلم).

فأنت أمام شخصية قوية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنكسر أمام عاديات الحياة أو مسراتها، بل لا يمكن -وهذا مهم جدًّا- أن تجعل من القدر مبررًا للرضا بالضعف والاستكانة إلى الدون. وكأني بالفيلسوف محمد إقبال -رحمه الله- كان يتحدث عن شخصية الصحابة حين قال: "المسلم الضعيف يعتذر دومًا بالقضاء والقدر، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد".

hiragate.com

٤– الإنتاجية: فالمسلم الذي رباه النبي ﷺ ليس عالة على الحياة، وإنما هو شخص منتج يقدّر الحياة حق قدرها باعتبارها مزرعة للآخرة، ويسعى دائمًا ليضيف إليها شيئًا ويترك فيها أثرًا من الخير وإن ظن أنه لن يستفيد من خيره أحد، أو أن الحياة ذاتها لن تستمر، وهذا هو المعنى الذي استفاده من قوله ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل" (رواه أحمد).

٥– المسؤولية الاجتماعية: فالمسلم الذي رباه النبي ﷺ له شعور بالمسؤولية تجاه مجتمعه، ويدرك أن مصيره مرتبط بمصيرهم، وهو ما يحقق مفهوم الولاية الحقيقية "بعضهم أولياء بعض". فهو لا يمكن أن يرسم لنفسه حدودًا من الأنانية، ولا يمكن أن يحبس نفسه خلف أسوار المصالح الخاصة والمنافع الذاتية له ولأسرته القريبة، وإنما يعيش بنفسية من تربّى على المعنى المذكور في قوله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا" (رواه البخاري).

الخاتمة

إذن، إن مفتاح فهم السيرة النبوية، يكمن في طريقة نظرتنا إلى النبي ﷺ وإدراكنا لحقيقة رسالته وجوهرها، والذي نراه أساسًا في تربية الإنسان وبنائه البناء النفسي المنسجم مع المنهج الرباني الذي أنزله الحق ﷻ على قلب المصطفى ﷺ. ■

(*) كاتب وباحث جزائري.

أيها الصرح الحزين

عن قريب
ستصْمت العاصفات،
وأيامُك البهيّة
من جديد ستُشرق،
ومجدُك الأغرّ
عن نفسه سيُبين..
***

د. أيمن حسن حجاب*

معالم الحضارة الإسلامية

١

الحضارة الإسلامية هي المرآة التي عكست الثقافة الروحية والمادية للشعوب التي أظلها الإسلام، حيث امتدت الدولة الإسلامية من الهند وآسيا الوسطى شرقًا، إلى الأندلس وبلاد المغرب غربًا، وجنوب إيطاليا وصقلية شمالاً، حتى بلاد اليمن وداخل إفريقيا جنوبًا. وقد ضمت هذه الحضارة كل هذه الشعوب بعقائدها المختلفة وثقافاتها المتعددة، بل إن بعض البلاد التي فتحها الإسلام كانت مهدًا لحضارات شامخة استقرت في وجدان شعوبها، وبرغم كل هذه الاختلافات فقد صهرها الإسلام في بوتقة واحدة نتج عنها الحضارة الإسلامية التي غمرت كل هذه البلاد، ونشأ في أحضانها علماء من كل الملل والنحل والأعراق والأجناس من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، وفي كل الآداب والعلوم والفنون، حيث كان الإسلام هو المحور وروح الإبداع، مما مكّن هؤلاء -في النهاية- من إنشاء حضارة ذات طابع متميز ظل مستمرًا على مر

العصور. ذلك أن هذه الحضارة -بآفاقها الرحبة الواسعة ومنجزاتها الضخمة المتعددة- جاءت ظاهرة فريدة من نوعها في سلسلة الحضارات التي زخر بها التاريخ، والتي أسهمت في تقدم الإنسان فكريًّا واجتماعيًّا ومعنويًّا وماديًّا.

مفهوم الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية هي الإسهامات المدنية التي أنجزتها دمشق وبغداد وقرطبة وغرناطة والقاهرة وفاس وبلاد فارس، وسواها من المدن والحواضر الإسلامية والعربية. والحضارة والثقافة تستخدمان بمعنى واحد سواء في الشرق أو الغرب، وقد يختلف البعض في تسميتها "حضارة إسلامية" أو "حضارة عربية" فلا تناقض بينهما، فهما توأم حضاري لا ينفصل. فالمسلمون من العرب وغير العرب ساهموا في تكوين وتفعيل هذه الحضارة.

خصائص الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية تتميز بعدة خصائص عن غيرها ممن سبقها من حضارات فهي:

١- حضارة توحيد وإيمان تؤمن بالله ورسالاته وأنبيائه عليهم السلام، وتهتدي بهدي خاتم النبيين محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥)، والحضارة الإسلامية عندما اتخذت الإيمان ركيزة لها، إنما استهدفت حماية كيانها بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الخُلقية الكريمة فلا خير في علم دون خُلق. ومكارم الأخلاق هي جوهر الديانات السماوية كلها، بحيث إنها تتفق جميعًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والإيمان في الإسلام لا يتعارض مع العقل؛ لأن الإسلام يقوم على أساس مبدأ تعقل الإيمان حتى يكون الإيمان راسخًا ثابتًا لا يتأرجح بتأرجح العاطفة. والحضارة الإسلامية حين تتخذ التوحيد والإيمان ركيزة ومنطلقًا لها، إنما تهدف حماية كيانها واستمراريته بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الأخلاقية والمبادئ الفكرية.. فهي

الحضارة الإسلامية عندما اتخذت الإيمان ركيزة لها، إنما استهدفت حماية كيانها بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الخُلقية الكريمة، فلا خير في علم دون خُلق. ومكارم الأخلاق هي جوهر الديانات السماوية كلها، بحيث إنها تتفق جميعًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حراء

حضارةٌ ذات منطلقات إيمانية ومرجعية دينية، أدت إلى قيامها وإبداعها وازدهارها، من هنا اصطبغ كل نشاط حضاري فيها بصبغة التوحيد والإيمان، وهذا ما يجعلها تختلف عن أية حضارة أخرى لم تتبنَّ التوحيد صبغة وشريعة لها.

٢- حضارة تقدمية بكل معاني الكلمة، لا جمود فيها ولا رجعية؛ حيث جاءت ثورة ضد الظلم والاستغلال والاستبداد والجمود والنكوص. فالإسلام لا يمنع المسلم من الأخذ بكل جديد طالما أن هذا لا يتعارض مع روح الدين ومثله العليا وآدابه، وليس حقيقيًّا ما يدعيه الهدامون من أن الإيمان يتعارض مع مبادئ العدالة الاجتماعية، لأن العكس هو الصحيح، بمعنى أن الصورة المثلى للعدالة الاجتماعية لا تكتمل إلا تحت مظلة الإيمان.

٣- حضارة تتصف بالمرونة وسعة الأفق؛ بمعنى أنها لم تكن أبدًا منذ مولدها منغلقة على نفسها، وإنما كانت دائمًا مرنة قابلة للأخذ والعطاء، ولم تقف موقفًا معاديًا لما سبقها من حضارات، بل أخذت منه ما يتناسب معها، على العكس تمامًا مما فعلته الكنيسة وكهنتها من معاداتها لكل ما يخالفها من حضارات وعلماء. ولم تجد الحضارة الإسلامية العربية ما يحول دون الإفادة من تراث الحضارات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من الحضارات التي احتكت بها. وفي الوقت نفسه وقفت الحضارة الإسلامية موقفًا سمحًا من التراث الحضاري لكل من اليهود والمسيحيين، فأقرَّت ما أتت به الكتب السماوية السابقة من مبادئ خلُقية كريمة، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وَأَنْـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُـدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَـانَ إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ اللهِ لَهُـمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ وَاللهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقَـامٍ﴾(آل عمران:٣-٤)؛ كل ما في الأمر هو أن الحضـارة الإسـلامية أحسـنت الانتقـاء، فلـم تتقبل ما صادفتـه من عناصر الحضـارات الأخرى، وإنما تخيرت مـا من شـأنه أن يسـاعدها على الاحتفـاظ بقيمها ومثلها وطابعها وهويتها، ورفضت كل ما لا يقبل التكيف، وكل ما لا يتفق وروح الإسلام ومبادئه.

٤- هي حضارة محبة وسلام؛ ففي ظل السـلام يكون البنـاء والإنشـاء والتعمير، وفـي ظـل السـلام (الإسـلام) يأمـن الإنسـان على نفسـه وعرضـه ومالـه وأهلـه وعقله ودينه وهي مقاصد الإسلام، مما يجعل الإنسان ينصرف إلـى العلـم والعمل والإنتاج والإبداع مـع يسـر وسـهولة الانتقال بين ربوع العالم الإسلامي في سلام وأمن وأمان، حتـى أطلـق بعض المستشـرقين على ذلك الوضـع اسـم "السـلم الإسـلامي". وقد أجمـع الباحثون على أن البلاد والأقاليم التي احتوتها الدولة الإسلامية، والتي ترعرعت بيـن جوانبهـا الحضارة الإسـلامية العربيـة، نعمت تحت مظلـة الإسـلام بقـدر مـن السـلام لـم تعرفه فـي تاريخها السـابق. وقد حررت هذه الخاصية الحضارة الإسـلامية من أنماط الطبقية والعصبية التي من شأنها أن تجعل من المجتمـع طبقات مغلقة، كمـا لعبت هذه الخاصية دورًا هامًّـا فـي إثراء الحضارة الإسـلامية وتنوعهـا، من خلال تنوع وتعدد الأجناس البشرية الداخلة في صياغتها؛ فقد اجتمـع في بوتقتها العربي والفارسـي والرومي والتركي والأفريقي.. وتجمعت خصائصهم وطاقاتهم لتتعاون في صياغـة أمـة واحدة وحضـارة واحدة على قدم المسـاواة المطلقة التي تربط بين البشر.

٥- هي حضارة تسامح؛ فـلا حقد فيهـا ولا تعصب ولا كراهية، ويظهر ذلك من خلال سماحة الإسلام تجاه ما سـبقه من رسـالات وشـرائـع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِيـنَ هَـادُوا وَالصَّابِئِيـنَ وَالنَّصَـارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِيـنَ أَشْـرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِـلُ بَيْنَهُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ﴾(الحج:١٧). وقد أمر الله ﷻ رسولَه والمؤمنيـن بالصفـح والتسـامح في أكثـر مـن موضـع منهـا قولـه تعالـى: ﴿فَاصْفَـحْ عَنْهُـمْ وَقُلْ سَـلَامٌ فَسَـوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(الزخرف:٨٩)، كذلك طالب الإسلامُ المسلمَ بألاّ يحمل في قلبه حقدًا أو غلاًّ لغيره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِـنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ وَلَا تَجْعَـلْ فِـي قُلُوبِنَا غِـلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر:١٠)؛ وقد أدت هذه السـمة إلـى صبـغ الحضـارة الإسـلامية بالتسـامح والمحبـة مـع شـعوب العالـم كلـه، مما أسـهم فـي انفتاحهـا على الحضـارات والثقافـات الإنسـانية التـي عرفتهـا شـعوب العالم القديم، ومن ثم تمثل كل ما هو إيجابي فعّال في بناء الحضارة واستمراريتها ونموها وتنوعها.

وقـد وُجِـد مـن أهـل الذّمـة فـي ظـل الحضـارة الإسـلامية، مـن وصـل إلـى أرفـع المناصب فـي الدولة وحظـي باحتـرام العامـة والخاصة، ليدلي بدلـوه في نمو الحضارة الإسلامية، ويسهم في صياغة بعض إنجازاتها، وعلـى النقيـض ممـا كانت تفعلـه أوروبا مـع المخالفين لهـا فـي المذهـب أو الديـن، وصفحـات التاريـخ مـلأى بهذه الحوادث.

٦- تتصف الحضارة الإسلامية بالحيوية والاستمرار والوحدة منذ مولدها؛ وحتى اليوم تواصل نشاطها بدرجة متفاوتة على مر القرون والعصور، وإن تعرضت للذبول والانكمـاش حينًـا نتيجـة لعوامل طارئة، مثـل الهجمات العدوانيـة الشرسـة التـي يتعـرض لهـا العالم الإسـلامي؛ فـإن مثـل هـذه العوامـل كان تأثيرهـا مؤقتًـا لا يصـل إلى حد التوقف، وبزوال المؤثر يعود لهذه الحضارة وجهها المشـرق، وتستأنف مسـيرتها البناءة بنشاط وثبات؛ ذلك أن الحضـارة الإسـلامية قامـت علـى أسـس متينـة مـن الدعائم الروحية والخلقية والفكرية.

ورب أجـزاء مـن العالم الإسـلامي حـاول الاحتلال فيها أن يجتث الحضارة الإسلامية -عقيدة وفكرًا ولغة- ولكنهـا لـم تلبـث بـزوال السـيطرة الاحتلاليـة أن رفعت رأسها معتزة بتراثها الإسلامي وطابعها العربي. ولذا فإن هـذه الحضـارة حتمًـا سـتسـتعيد عافيتهـا لا محالة وتغمر العالم أجمـع من جديد.

٧- هي حضارة إنسانية بكل معاني الكلمة؛ تستهدف

hiragate.com

-أولاً وأخيرًا- خير الإنسان وصلاحه في الدنيا والآخرة، والحفاظ على كرامته وحريته، والنهوض بمستواه الروحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي، ومنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتجنبه كل ما من شأنه أن ينزل به الضرر، حيث نظّم الإسلام حياة الإنسان -الخاصة والعامة- تنظيمًا دقيقًا يستهدف سعادة الفرد والأسرة والمجتمع، فالإنسان هو محور هذه الحضارة، وسعادته غايتها.

٨- تتصف الحضارة الإسلامية بالأمانة المطلقة؛ وهي صفة ميَّزتها عن كثير من الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها، ووضح هذا في نسبة ما نقلوه وترجموه من علوم اليونان والفرس والهنود وغيرهم، فلم ينسبوه إلى أنفسهم بل ردوا الفضل إلى أهله، وعلى العكس مما فعله اليونانيون عندما نقلوا الكثير عن غيرهم -وبخاصة الحضارة المصرية القديمة- ونسبوه إلى أنفسهم، وأيضًا ما يفعله الكثير من الكتّاب الغربيين اللهم إلا قليلاً منهم، عندما يكتبون عن تاريخ العلم والعلماء، ويغفلون عن قصد دور الحضارة الإسلامية وعلمائها في ارتقاء الحياة البشرية، وفيما وصلوا هم إليه من تقدم. كانت الحضارة الإسلامية هي الدعامة الأساسية الرئيسة في ذلك، أما علماء الحضارة الإسلامية، فقد ضربوا مثلاً رائعًا في الأمانة العلمية ونسبة الحقائق والأفكار إلى أصحابها دون تمييز؛ مما جعل الحضارة الإسلامية تقدم إنتاجاتها وكشوفاتها للعالم بأسره دون تفرقة أو تمييز، وجعلها في متناول الجميع أيًّا كان.. فقدّمت للإنسانية عطاءً زاخرًا بالعلم والمعرفة والفن الإنساني الراقي، وكان عطاؤها لفائدة الإنسانية جمعاء، لا فرق بين عربي وعجمي أو أبيض وأسود، بل لا فرق بين مسلم وغير مسلم.

ولعل ما سبق وبخاصة مسألة الأمانة العلمية التي تتصف بها الحضارة الإسلامية؛ يتضح عندما تطالع بعض الكتب عن تاريخ العلم والعلماء لبعض الكتاب الغربيين، فتجدهم يحذفون الحقبة التي سادت فيها الحضارة الإسلامية العالمَ في العصور الوسطى؛ وهي فترة تخلفهم وظلامهم عن عمد وقصد، متناسين ما يتشدقون به من الأمانة العلمية وعدم التمييز والمساواة، وهي شعارات يملؤون بها الدنيا، فما هم فيه الآن ما هو إلا تقدم تقني وليس حضارة، فالصفات التي سبق الإشارة إليها هي التي تبرهن على كونها حضارة أم تقدم تقني وفقط.

عنصران تقوم عليهما الحضارات

إن كل حضارة فيها عنصران؛ عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي.

• **أما العنصر المادي**؛ فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، وتلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذا، لجاز لنا أن نستخف بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا؛ لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة، مما لم تعرفه الحضارات السابقة فقط. فالعنصر المادي في الحضارات، ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا.

• **وأما العنصر الأخلاقي والروحي**؛ فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام. ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

وأخيرًا فالغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب. وحضارتنا الإسلامية تظل الوحيدة من بين سائر الحضارات الأخرى، القادرة على الانبعاث، لا سيما إذا تذكرنا قدرة النص القرآني والحديث النبوي على حماية مصداقيتهما بوعد الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩)، وشهادة التاريخ والوقائع، تثبت أنه ما من نص ذي أصل ديني، قدر على مجابهة التحريف والتزييف كالنص الإسلامي، مما يحقق لأمتنا الإسلامية التقدم والازدهار وإعادة الحياة والاستمرار لحضارتنا الخالدة. ■

(*) كاتب وأكاديمي مصري.

hiragate.com

د. فؤاد البنا*

التخلي عن الأخذ بالأسباب سوء أدب مع الله.

الموازين

الفصاحة
ظاهرة صحية أم مرضية؟

طرح عليّ الفنان عبد القادر قوزع سؤالاً حول مكانة الفصاحة مستندًا على مقالة لأحد العلماء المعاصرين تحذر من المنافق العليم اللسان، بما قد يستشف القارئ منه أن الإسلام يكره الفصاحة ويحبذ الرثاثة القولية مع أن كتابات ذلك العالم جميلة. ولكي تعم الفائدة، آثرت أن أكتب هذه المقالة القصيرة عن خطورة الفصاحة كسلاح ذي حدّين يمكن أن يسمو بالحق إلى آفاق الذرى، أو يخسف به إلى أعماق الثرى.

ونبدأ بالتأكيد على أن الفصاحة والبلاغة والبيان هي في حد ذاتها نِعم جزيلة وعطايا ثمينة، مَن اعتلى ناصيتها موهبةً وخبرة فقد ركب أحد معارج الترقي الاجتماعي، وامتلك بعض مقاليد الجاذبية الآثرة والتأثير الاجتماعي.

ولأهمية البيان امتن الله على الناس في بداية سورة الآلاء والألطاف الربانية "الرحمن" بأنه علّمهم البيان، ونسب التعليم إلى ذاته المقدسة تنويهًا وتشريفًا، حيث قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:١-٤).

ومن المعلوم أن معجزة هذا الدين الخاتم معجزة بيانية عقلية، مما يعني أن تأثير الفصاحة يساوي تأثير عصا موسى عليه السلام، وتأثير البلاغة يوازي إحياء الموتى الذي جرى على يد عيسى عليه السلام.

غير أن تأثير تلك المعجزات محدود زمانًا ومكانًا، بينما تجتاز معجزة القرآن حدود الزمان والمكان.

ولأهمية الفصاحة فقد تحدّى القرآن الإنس والجن تحديًا مفتوحًا، وما فتئ يدهش ملوك الفصاحة بفصاحته، ويذهل أمراء البيان ببيانه، ويُبهر أباطرة البلاغة ببلاغته.

وظلت فصاحة القرآن هي الوعاء الذهبي الأنيق الذي احتوى كل صور الإعجاز العلمي والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم، والتي صارت -عبر قرون من الزمن- البوابة العريضة التي دلف من خلالها كثير من العظماء إلى بساتين الإسلام الوارفة.

ولقد اختار الله ﷻ اللغة العربية لغةً للقرآن الكريم؛ وذلك لاعتبارات عديدة أهمها ما نحن بصدده هنا، وهي أن العربية أزهى اللغات بيانًا، وأجملها بلاغة، وأروعها فصاحة، وهذا الأمر واضح حتى في عنوانها، فالعروبة في القاموس تعني الفصاحة والإبابة.

وكان العرب قبل الإسلام يفاخرون بفصاحتهم الأمم، رغم إفلاسهم المريع في سائر ميادين الحضارة، وكانوا يعتزون بلغتهم ويُسَمُّون من لا يتكلمون العربية بالأعاجم، وكان بيت واحد من الشعر يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

ومن عوامل فصاحة العربية بين سائر اللغات العالمية، غناها بالمفردات والتراكيب والأساليب، وامتلاكها لقواعد الاشتقاق ومقومات التجدد والتطور.

وعلى سبيل المثال، فإن مفردات قاموس عربي قديم، تساوي أضعاف مفردات أكبر قاموس في اللغة الأهم

فصاحة القرآن هي الوعاء الذهبي الأنيق الذي احتوى كل صور الإعجاز العلمي والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم، والتي صارت عبر قرون من الزمن البوابة العريضة التي دلف من خلالها كثير من العظماء إلى بساتين الإسلام الوارفة.

الآن -وهي الإنجليزية- رغم الفارق الزمني ورغم أنها أصبحت لغة العلم والحضارة في العالم كله ولأسباب عدة أهمها: تفوق وقوة الإنجليز والأمريكان خلال العصور الأخيرة، واهتمامهم الكبير بها من كل النواحي.

وكان الأنبياء أصحاب فصاحة وبيان؛ لأن ذلك من مقتضيات البلاغ، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(النور:٥٤).

ولما كان نبي الله موسى عليه السلام يعاني من لثغة في لسانه، وخشي أن لا ينطلق لسانه فيتسبب ذلك في عدم قبول دعوته، فقد دعا الله أن يردفه بأخيه هارون متحججًا بأنه "أفصح منّي لسانًا"، ولِوَجاهة الطلب والحجة استجاب الله له.

ويبدو هنا أن الفصاحة لازمة من لوازم النبوة، إذ لم يكن ينقص موسى عليه السلام من مؤهلات النبوة إلا هي، وبسبب خارج عن إرادته فاكتمل النقص بـ"هارون".

ومن المعلوم أن الرسول محمد ﷺ أفصح العرب والعجم، وأنه أوتي جوامع الكلم، وكان يحتفي بالنصوص الفصيحة ويطرب لها، ويشجع البلغاء حتى إنه أهدى أحدهم بردته الشريفة.

ومع ذلك كله فقد أمره الله ﷻ بركوب ناصية البلاغة في البلاغ، فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣)؛ لأن كثيرًا من مغاليق العقول وأقفال القلوب، تنفتح بمفاتيح البلاغة وشفرات الفصاحة. وظل ﷺ يجتبي البلغاء ويصطفي الفصحاء، ويحضُّهم على تسخير فصاحتهم، الشعرية والنثرية، الخطابية والحوارية، من أجل المنافحة عن هذا الدين وخدمته.

hiragate.com

ولهذا اختار لنفسه شاعرًا مُجيدًا وخطيبًا مِصْقَعًا، وكان يحرّض شاعره حسان بن ثابت قائلاً: "اهجهم وروح القدس معك"، وأُثِر عنه قوله ﷺ: "إن من البيان لسحرًا".

وما تزال الفصاحة من أهم المؤهلات لقادة الشعوب وصناع الرأي العام في أذهان أغلب البشر، رغم ارتفاع منسوب الوعي وطغيان المادة في هذا العصر، وظهور الكثير من المتغيرات التي يفترض انتقاصها من مكانة الفصاحة والبيان.

وكمثال على ذلك: إن إحدى أقوى مؤهلات الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" لبلوغ البيت الأبيض، كانت فصاحته وليست معارفه وخبراته، فلم يكن سوى محامٍ بسيط، ولم يسبق له أن تسنَّم منصبًا عامًّا في حياته، ثم إنه ينتمي إلى الأقلية السوداء المنتقصة عند أعداد عريضة من البيض، إذ كان أبوه مسلمًا وفد من كينيا في إفريقيا بحثًا عن فرصة عمل، لكن فصاحته رَفَعته مكانًا عليًّا.

وقد ذكرت نصوص الإسلام أن المنافقين يحرصون على الظهور بلغة جميلة، حتى إن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾(المنافقون:٤).

وحذر النبي ﷺ من المنافق عليم اللسان.. فهل هو موقف من الفصاحة؟ وهل في ذلك انتقاص من البلاغة أو اتهام لأصحاب اللغة الجميلة والتعبيرات الرشيقة؟

إن ذلك لا ينتقص من الفصاحة وليس فيه دعوة للرثاثة اللغوية، بل العكس تمامًا هو الصحيح؛ فهو تأكيد على أهمية الفصاحة، وتحذير من خطورة استغلال المنافقين لها، بحيث يخفون تحت أرديتها الفاتنة قبح عوارهم وعوراتهم، ويزينون بجمالها الساحر مشاين أخلاقهم وخلالهم.

وأختم هذه السانحة بطرح هذا التساؤل:

هل استخدام اليهود -مثلاً- لطائرة "إف ١٦" في قتل أطفال المسلمين، يجعلها قبيحة بذاتها عند عامة المسلمين؟ وهل يبرر لهم ذلك مقاطعتها؟ ولو فعل ذلك أحد فهل يعده الناس عاقلاً؟ ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

يوم يفرّ الأخلاّء

إنِ اختلّ الحساب في هذه الدار،
ودهمك الإفلاسُ،
قد يمدّ صديقٌ إليك يدَه،
فيجبر ما انكسر،
ويعوّض ما فات..
فكيف إذا اختل حسابك في تلك الديار؟!

***

د. حذيفة أحمد الخراط*

نحو الارتقاء بمناهجنا التعليمية
مشاكل وحلول

إثراءً لعملية التعليم الجامعي في عالمنا الإسلامي، وسعيًا نحو النهوض بواقع الأمة، ينبغي الاهتمامُ بمناهج كليّاتنا العلمية، والحرص على تطويرها، وتحديثها بصورة مستمرة تُواكب التغيرات السريعة، والإضافات الكثيرة التي تَظهر في ساحات العلوم حول العالم.

إلا أن الخطأ كل الخطأ الذي تعاني منه جلُّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية في عالمنا الإسلامي، هو استيراد مناهج علمية وافدة ذات مقررات تعليمية مادية بحتة، واعتمادها بصالحها وطالحها وبما فيها من عِلَل وأسقام، رغم أنها تُغْفِل الجوانبَ الروحية والتربوية، وتَصُبّ اهتمامَها على النواحي المهنية والعملية فحسب، وتربّي طلابها على تقديس المادة، وتمجيد الربح، وتقديم إمتاع الذات على كلّ تقدير.

تحـرص رسـالة التربية والتعليم في الإسـلام عـلى إظهـار شـخصية الأمـة الحضاريـة وإنجازاتها وإسـهاماتها في بناء الإنسـانية، وتتسـم بالواقعيـة والمرونـة، والتوافـق مع الفطرة الإنسانية، والقدرة على تلبية متطلبات العصر بعيداً عن الجمود والركود.

كما يُقرّ السّوادُ الأعظم لتلك المناهج المستوردة ما يتنافى مع تاريخ أمتنا المسلمة وثقافتها وتراثها، ويؤكد صحة ما يفتريه كثير من المستشرقين حول تاريخنا وعظماء أمتنا، وتتجاهل ما لرسالة الإسلام من إسهامات وجوانب حضارية خالدة، وتَنْسُب كلَّ الاكتشافات إلى علماء الغرب، وتتناسى ما بذله العلماء المسلمون من جهودٍ حَفِظَتْها لهم كتابات التاريخ المنصفة.

وكان مِن مفرَزات ذلك أن ظهرَتْ في البلاد الإسلامية حالة من التناقض والفصل بين ما تستورده هذه البلاد مِن مناهج تعليمية، وما تمليه عليها تعاليم الإسلام من أخلاق وضوابط. وطفا على السطح جيل من الخرّيجين الذين برعوا في تخصّصاتهم العلمية وعلومهم الإنسانية، إلا أنهم افتقدوا إلى أبجديات الأسس الدينية، بل وثار بعضهم على الدين والأخلاق، وقلدوا الأجانبَ في عاداتهم وتقاليدهم، واتبعوا سننهم، وظهرَتْ فوضى تربوية عارمة، صاحَبَها تَناقضٌ في الآراء، واستخفاف بقيم الدين ومُثُله، وغدا ذاك الجيل كلاًّ على الأمة، ونقطة ضَعْفٍ في بنيانها.

ويجب أيضًا أن تكون مسألة التعليم في دولنا الإسلامية مسألة مستقلة بذاتها، لأن الأمة الإسلامية أمة خاصة في طبيعتها ووَضْعها، وذات مبدأ وعقيدة ورسالة ودعوة، فيجب أن يكون تعليمها خاضعًا لذلك، وأن يكون أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة. وإن كل تعليم لا يؤدي هذا الواجب، أو يغدر بذمته ويخون في أمانته، ليس هو التعليم الأمثل وليس هو البناء والتعمير، بل هو الهدم والتخريب، وأَوْلى للبلاد الإسلامية أن تتجرد منه، وتُحْرَم من ثمراته المادية الفاسدة، والأمية خير لها مِن هذا التعليم الذي يخالف طبيعتها وعقيدتها وروحها.

هدف رسالة التربية والتعليم

وتهدف رسالة التربية والتعليم في الإسلام إلى معالجة الكائن البشري وصولاً نحو الكمال الإنساني، وتسعى إلى إيجاد الإنسان الصالح، وترسيخ المعاني الإيمانية في نفسه، وتربيته على الفضائل السلوكية، وتُوَجّهه نحو الخير والفلاح وفق نهج متكامل قويم يُعنى بتربية شاملة، تحرّر العقل، وتطهّر الوجدان، وتوازن بين ضرورات الجسم ومتطلبات الروح، وتزوّد حوافزَ الخير وتنمّي بواعث الإيمان.

كما تحرص تلك الرسالة الفاضلة على إظهار شخصية الأمة الحضارية وإنجازاتها وإسهاماتها في بناء الإنسانية، وتتسم بالواقعية والمرونة، والتوافق مع الفطرة الإنسانية، والقدرة على تلبية متطلبات العصر بعيدًا عن الجمود والركود.

إذن فعلى علمائنا وواضعي مناهجنا التعليمية، أن يدركوا أن مناهج التعليم المستوردة ما هي إلا عصارة فكرٍ بشري، وتجارب واجتهادات، وقد يخطئ أصحابها أو يصيبون، وقد يمشون أو يتعثّرون.. وأن التعليم ليس ببضاعة تُستورد أو تُصدَّر بين بلد وبلد. وليس إذن مِن الحكمة أن تُنقَل مناهجُ العلم الغربية بما تحتويه من عثرات وأخطاء، بل بعد أن تُهذّب وتُقوّم وتُصفّى مما يشوبها، وتُصبَغ صبغة إيمانية تُهذِّب النفوس، وتُعامَل على أنها مواد خام تأخذ منها الأمة حاجتَها، وما يفيد أبناءها وينفعهم، وتُعاد صياغتها وفق ما يلائم تراثنا العريق ومبادئنا، لعلها تثير الاعتزازَ في نفوس ناشئتنا بالمشروع الحضاري للإسلام، وبإمكان قيام حضارة إسلامية على غير النهج الغربي المستورد.

الحاجة إلى نظام جديد

العالم الإسلامي اليوم في حاجة ملحّة إلى نظام تعليم إسلامي في الروح والمضمون والسّبْك. ووَضْعُ منهج تعليمي سامٍ كهذا، ينبغي أن يكون من حاجات البلاد

hiragate.com

الأولى التي لا يَحتمل التغافل عنها، وهو عمل -لا شك- شاق، ويجب أن تقوم بشأنه لجان ومجامع علمية بمساعدة الحكومات وتشجيعها، وتُسْنَد مهامه إلى مَن تتوافر فيه المؤهلات والخبرات اللازمة.

ويجب أن يكون للعلوم الشرعية حضور واضح ضمن منهج ما يَدْرسه طلابنا من مقررات الكليات العلمية، بغية مساعدتهم على فهم الإسلام فهمًا صحيحًا، وغَرْس العقيدة في نفوسهم، وتنمية بواعث الإيمان، وتزويدهم بالقيم الفضلى والمثُل العليا التي تعينهم على القيام بأداء رسالتهم في المجتمع.

ومن محاسن مناهج العلوم الشرعية أنها تكسب الطالبَ الجامعي المسلم -عقب تخرجه- القدْر المطلوب من الثقافة الإسلامية، الذي لا يُعْذَر المسلمُ المتعلم بجهله، كمسائل العقيدة والعبادات والمعاملات، كما تحيطه علمًا بأسس فقه التخصص، وما يتعلّق بمهنته من أحكام فقهية. وقد دأب المسلمون طوال تاريخهم المجيد أن يكون كلُّ ذي صنعة ومهنة منهم ملمًّا بأحكامها الشرعية، وذلك بعد أن استقر في مسَلَّمات عقيدتهم أن الأحكام الشرعية لا بد أن تستغرق الحياة كلها.

وتُعين المناهجُ الشرعية الخريج المسلم قُبَيل دخوله إلى سوق العمل وممارسة ضروب التجارة على الإلمام بفقه أحكام الزكاة، وعلى معرفة نصابها ومصارفها وأوان إخراجها وما يتعلق بها من أحكام شرعية، كما تُيَسِّر له فَهْم فقْه البيوع وأحكام المعاملات النقدية والتجارية. يقول الإمام الغزالي: "لو كان هذا المسلم تاجرًا وقد شاع في البلد معاملة الربا، وجب عليه تعلّم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فَرْض عَيْن، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب".

وتُربّي تلك المناهجُ الإسلامية الجامعيَّ المسلم على إطابة مطعمه، وتحرّي الكسب الحلال، والنأي بالنفس عن الكسب الحرام، واتقاء الشبهات، وتحثه على أن يستفتي قلبه وإن أفتاه الناس، وتلقنه أن الإسلام يُحرّم طائفة من المعاملات الفاسدة كالرشوة، والاحتكار، والبيع في وقت صلاة الجُمُعة، وبَيْع السلع ذات الصلاحية المنتهية أو التي فسدَتْ بسبب سوء تخزينها -وإن تيقن أن ذلك لن

العالم الإسلامي اليوم في حاجة ملحّة إلى نظام تعليم إسلامي في الروح والمضمون والسّبْك. ووَضْعُ منهج تعليمي سام كهذا، ينبغي أن يكون من حاجات البلاد الأولى التي لا يَسَع التغافل عنها، وهو عمل شاق، ويجب أن تقوم بشأنه لجان ومجامع علمية.

يترتب عليه أذى صحيّ- وبَيْع ما لا يملكه، أو ثبت له أنه مسروق، أو مغشوش، أو من مصادر مشبوهة.

مناهج إضافية

ومما يجب إضافته إلى مناهج الكليات العلمية أيضًا، مادة اللغة العربية، ولا يصحّ تجاهل ذلك بحجة أن لغة الدراسة في هذه الكلية هي الإنجليزية -أو غيرها من اللغات الأجنبية- فالعربية هي لغة القرآن، ولسان النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

ومن المقررات الهامة الأخرى التي يجب أن تضاف إلى ذلك المنهج، مادة تاريخ العلوم والحضارات، التي تتناول بالدراسة بعضَ الجوانب المشرقة من سيرة علماء السلف الصالح، وحِرْصهم على العلم والتعلّم، والنهوض بحضارة الإسلام.. كما تتناول هذه المادة تاريخَ المهن العلمية عند المسلمين وإسهاماتهم في الارتقاء بعلومها، مما يدفع الطالبَ إلى الاعتزاز بهويته الإسلامية وتراث أمته وعلمائها من السلف والخلف.

ونتاج ذلك كله، أن يتحلّى الطالب المسلم بعد تخرّجه في الجامعة وبَدْئه ممارسة حياته العملية بطائفة من الأدبيات والأخلاق التي يَصلح بها شأنُ دنياه وأخراه معًا، وهو بذلك يسير على خطى نصوص الكتاب والسنة، ويقتفي أثرَ سلفه الصالح، وهو يَعلم علم اليقين أن بقاء الأمة وازدهار حضارتها واستدامة مَنْعَتها، إنما يُكفَل لها إذا ضُمِنَتْ حياة الأخلاق فيها، فإذا سَقَط الخُلُق هوى البنيان لا ريب. ■

(*) أخصائي جراحة التجميل المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

د. العطري بن عزوز*

الإعلام الجديد والشباب

تأثير الإعلام الجديد في شبابنا، كيف نوجهه؟ وكيف نحمي مجتمعنا من الذوبان في المجتمعات الأخرى؟ وهل أعددنا إعلامًا إسلاميًّا متميزًا بديلاً عن الإعلام الجديد، بحيث يجد فيه شبابنا ما يبحث عنه في الإعلام الآخر، ويراعي عقيدة المجتمع وشريعته وأخلاقه، دون أن ينسى القواسم المشتركة بيننا وبينهم، والتي هي ملك المجتمعات الإنسانية كلها حتى لا يحدث الانفصام والصدام؟

مفهوم الإعلام الجديد

لا يوجد تعريف علمي ثابت للإعلام الجديد نظرًا لتغيراته المتسارعة في حقول التكنولوجيا والثورة المعلوماتية وتطور البرمجيات، إضافة إلى أن الإعلام الجديد له مرادفات عدة، منها الإعلام الرقمي، والإعلام الاجتماعي، وصحافة المواطن، ومواقع التواصل الاجتماعي، والإعلام التفاعلي.

والإعلام الجديد لم يعد فيه نخبة متحكمة أو قادة إعلاميون، بل أصبح متاحًا لجميع شرائح المجتمع وأفراده الدخول فيه واستخدامه والاستفادة منه طالما تمكنوا وأجادوا أدواته. وبهذا نستطيع أن نقول إن تكنولوجيا الإعلام الجديد فتحت بابًا واسعًا لحرية الإعلام لا يمكن إغلاقه، وهي وسيلة سهلة لإيصال المعلومات ونشرها إلى جميع أطراف العالم عن طريق وسائله (مواقع الشبكات الاجتماعية والمدونات والويكيبيديا والمنتديات وتويتر وموقع يوتيوب).

الفرق بين الإعلام الجديد والقديم

إن للعملية الإعلامية ثلاثة عناصر: مؤثر ومتأثر ووسيلة تأثير. وكان للإعلام القديم اتجاهًا واحدًا مؤثرًا، والمتلقي متأثرًا، والوسيلة الإعلامية المستخدمة إمَّا صحافة أو تلفاز أو إذاعة، وفي كل الحالات الثلاث يبقى المتلقي متأثرًا بشكل سلبي.. لذلك كان لهذه الوسائل الإعلامية أهمية كبيرة في صياغة وتشكيل الرأي العام في أي قضية، وفي الإعلام الجديد تغير الوضع، حيث حصل تحول مذهل في وسائل الاتصال خلال العقد الأخير. وقد لامس الوسيلة الإعلامية بشكل مباشر، الأمر الذي أعاد صياغة المعادلة السابقة من مؤثر ومتأثر إلى مؤثر، والمتأثر أصبح أيضًا مؤثرًا.

مثلاً كان الكاتب في الجريدة الورقية أو المجلة سابقًا يكتب مقالة، فيقرأها الناس بقدر كبير من السلبية، حيث يستوي المؤيد والمعارض، فلم تكن هناك وسائل معينة لقياس مدى تقبل القراء لكاتب وعدم تقبلهم لآخر إلا من خلال التعقيبات التي ترسل إلى الجريدة ذاتها. ومعنى هذا أن الكاتب الصحفي كان تأثيره كبيرًا في السابق، وهو المتحكم في المعلومة أو الفكرة التي يصوغها للجمهور. بينما في الإعلام الجديد بإمكان المتأثر أن يكون فاعلاً ومؤثرًا من خلال ردوده السريعة وتعقيباته التي يراها الجمهور بعد نشر مقال الجريدة أو المجلة.

خصائص الإعلام الجديد

• **التفاعلية:** بمعنى أن ممارسة الاتصال تكون ثنائية الاتجاه بين القائم بالاتصال والمتلقي، ويكون هناك تبادل الأدوار الاتصالية، ويكون الحوار حرًّا في الآراء والأفكار، وقد يكون مباشرًا أو في حجرات المحادثة أو مواقع تبادل رسائل البريد الإلكترونية، وتطلق التفاعلية على الدرجة التي يكون فيها للمشاركين في عملية الاتصال تأثير على أدوار الآخرين.

• **المشاركة والانتشار:** بتطور الإنترنت ووسائل الاتصال، أصبح بالإمكان لكل شخص يمتلك أدوات بسيطة أن يكون ناشرًا يرسل رسائله إلى الآخرين.

• **العالمية:** أصبحت بيئة الاتصال اليوم بيئة عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان والقارات والرقابة.

يتميز الإعلام الجديد بتأثيره المباشر على الجانب الأخلاقي والسلوكي، فهو يعزز لدى الشباب الممارسات غير الأخلاقية من خلال ما يشاهدونه عبر القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، الأمر الذي يؤدي إلى التمرد على القيم الدينية والعادات الاجتماعية السائدة، والتشكيك في قيم الأمة ومعتقداتها.

• **الحركة المرنة:** حيث يمكن نقل الوسائل الجديدة بحيث تصاحب المتلقي والمرسل، مثل الحاسب المتنقل، وحاسب الإنترنت، والهاتف الجوال، بالاستفادة من الشبكات اللاسلكية.

• **تجاوز الحدود الثقافية:** شبكة الإنترنت تلتقي فيها مئات الآلاف من الشبكات الدولية التي تتزايد كل عام بنسبة كبيرة، ومعها يتزايد عدد مستخدمي الإنترنت بطريقة غير مسبوقة، مما أدى بالتالي إلى تجاوز الحدود الجغرافية وسقوط الحواجز الثقافية.

• **اندماج الوسائط:** في الإعلام الجديد يتم استخدام كل وسائل الاتصال، مثل النصوص، والصوت، والصورة الثابتة، والصورة المتحركة، والرسوم البيانية ثنائية وثلاثية الأبعاد ..إلخ.

• **الحفظ والتخزين:** أصبح بالإمكان للمتلقي أن يحفظ الرسائل الاتصالية ويخزنها ويسترجعها متى شاء ويستخدمها في الوقت المناسب.

حقيقة التأثير والتأثر

أصبح للإعلام الجديد تأثير كبير في مخاطبة عقول ونفوس الشباب، ووسيلة هامة في منظومة القيم، بل أمسى له تأثير في مجرى تطور البشر.. ويختلف التأثير والتأثر بحسب الوسيلة الإعلامية ووظيفتها، وطريقة استخدامها، والظروف الاجتماعية والثقافية للأفراد والمجتمعات، وقد يكون التأثير سلبيًّا وقد يكون إيجابيًّا.

والتأثير من المصطلحات المشهورة في الإعلام والاتصال حيث يعرف بأنه "ما تحدثه الرسالة الإعلامية في نفس المتلقي (المتأثر)، وكلما استجاب المتلقي

hiragate.com

للرسالة، تعد الرسالة الإعلامية قد أحدثت تأثيرها، ويكون القائم بالاتصال قد حقق الهدف من الاتصال".

يرى "باركر وويزمان" أن الفرد يتلقى هذه المنبهات أو يستقبلها في شكل نبضات عصبية تأخذ طريقها إلى المخ، ثم يميز المخ بين هذه المنبهات ويختار بعضًا منها يخضعها للتفكير بعد أن يكون قد قام بفك كودها، ثم تحدث بعد ذلك عملية الاستجابة.

مجالات تأثير الإعلام الجديد

١- التأثير الثقافي والمعرفي: الشباب هم الفئة الأكثر تأثرا بالرسائل الثقافية والمعرفية التي تتضمن الأكواد والرموز، التي لا يستطيع جلهم حل رموزها ومعرفة أبعادها نتيجة شح رصيدهم الثقافي والمعرفي بتراث الأمة وانبهارهم بالتكنولوجيا الحديثة، ولم يعد مهتمًّا بما يجري من أخبار في الجريدة أو التلفاز أو الإذاعة بما يسمى الإعلام القديم. وأصبح الإعلام الجديد -بكل وسائطه- يسيطر على اهتمامات الشباب تأثرًا وتأثيرًا، فإذا أراد أحدهم أن يخبر صديقه عن مكتبة زاخرة بالكتب، يختصر له الكلمات في رابط قد لا يتجاوز السطر، أو إذا أراد أن يخبره عن مشهد مثير يقول له: "ادخل على اليوتيوب وطالع الحدث".

والرسالة التي يحملها الإعلام الجديد إلى العالم العربي والإسلامي، هي ترسيخ الثقافة الغربية في عقول ونفوس الشباب؛ فمعظم الأفلام والرسوم المتحركة والأفكار التي تبث في جميع وسائل الإعلام الجديد، تُمجّد الرجل الأمريكي أو الغربي الذي يتصدى للجميع ويحاول أن يساعد الجميع، بالإضافة إلى الرسائل التبشيرية للديانة المسيحية واليهودية من جهة الغرب، ومن جهة الشرق: رسائل الإلحاد الوافدة من الديانات الشرقية المعروفة، بالإضافة إلى تشويه صورة الدين الإسلامي وتصويره على أنه دين الإرهاب العالمي والتخلف والهمجية، وأن العرب ما هم إلا رعاة إبل ينتشرون في الصحارى لا علاقة لهم بالحضارة، وهذه الصور تدرّس حتى في منظومتهم التربوية. ويمكن أن نلخص التأثير الثقافي والمعرفي في الشباب في هذه النقاط:

• وسائل الإعلام الجديد تعيد صياغة طريقة التفكير لدى الشباب والحكم على الأشياء، وهكذا يتحول تفكيرهم تدريجيًّا إلى تفكير صناع القرار في الإعلام الجديد، أي البرمجة العقلية والذهنية لدى الشباب بما يتماشى وأهدافهم القريبة والبعيدة.

• الإعلام يؤثر على طريقة التفكير والتصرفات لدى الشباب، فهم يقلدون في كل شيء، مما يفقدهم القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب.

• نتيجة انبهار الشباب بتكنولوجيا الغرب، أصبح يصدِّق كل الإشاعات والأخبار الصادرة من الغرب.

التأثير الأسري والمجتمعي

أصبحت الأسرة اليوم تعتمد على التكنولوجيا الرقمية التي سيطرت على الجو العائلي؛ فبرامج التلفاز حلت محل حكايات الجَدَّة، والبرامج التعليمية حلت محل تعاليم الأب والمعلم، وهواتف اليد حلت محل هاتف البيت.. وهكذا لم يعد الأب هو المراقب والمسيطر على الوضع داخل الأسرة وخارجها، حيث يمكن للطفل أن يشاهد ما شاء على التلفاز، وقد تملك البنت أرقام هواتف خارج إطار الأسرة، ويمكن لهم الاتصال بالآخر بالصوت والصورة والفيديو أحيانًا، دون الانتباه إلى أضرارها المادية والمعنوية وتهديدها لكيان الأسرة وقطع أواصر العلاقات الاجتماعية، وكما يقول الإعلامي فهد الشميمري: "إن الرسالة الإعلامية، سواء كانت في شكل خبر أو فكاهة أو برنامج وثائقي، فإنها تستطيع أن تعمل على إزالة قيمة من القيم وتثبيت أخرى محلها، أو ترسيخ شيء قائم والتصدي لآخر قادم، وهذا بالضبط هو مفهوم التنشئة الاجتماعية في أبسط صورها".

ويمكن أن نلخص الآثار السلبية الأخرى فيما يلي:

• نقل أنماط الحياة الغربية إلى المجتمع الإسلامي يؤدي إلى خلخلة نسق القيم في عقول الشباب.

• السهر وعدم النوم مبكرًا والجلوس أمام التلفاز أو جهاز الكمبيوتر دون الشعور بالوقت وأهميته، له الأثر السلبي على التحصيل الدراسي والواجبات الضرورية.

• المضامين الإعلامية الموجهة إلى الشباب غير هادفة في أغلبها.

hiragate.com

• تمرد الأبناء على التراث الإسلامي وانبهارهم بالمدنية الغربية وما تنتجه من تكنولوجيا.

التأثير الأخلاقي والسلوكي

يتميز الإعلام الجديد بأن له تأثير مباشر على الجانب الأخلاقي والسلوكي، فهو يعزز لدى الشباب الممارسات غير الأخلاقية من خلال ما يشاهدونه عبر القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، الأمر الذي يؤدي إلى التمرد على القيم الدينية والعادات الاجتماعية السائدة، والسخرية من العلماء، وتفشي الرذيلة، والتشكيك في قيم الأمة ومعتقداتها ومكنوناتها.

والقيم الأخلاقية مسؤولة عن توثيق العلاقة بين أفراد المجتمع وحفظ توازنه، وحينما يتجرد الإعلام عن الأخلاق يصبح يلبي رغبات جهات مشبوهة تكنّ العداء للمجتمع الإسلامي النظيف. وقد نجح الإعلام الغربي في تفكيك عقول الشباب وإعادة بنائها، وأمسى الشباب لا يثق إلا بما تقوله وسائل الإعلام الغربية، وبالتالي يستحيل أن نتصور علاقة طبيعية بين مثل هذا الإعلام وبين القيم الأخلاقية، والواقع يثبت هذا التصور، فكل السلوكات الشاذة التي تصدر عن شريحة كبيرة من الشباب، سببها الإعلام بكل وسائله الحديثة.

ويمكن أن نلخص جملة من مظاهر تأثير الإعلام الحديث على المستوى الأخلاقي والسلوكي في هذه النقاط:

• تدل الإحصائيات التي أجريت في إسبانيا، أن ٣٩٪ من الأحداث التي قام بها بعض المنحرفين، قد اقتبسوا أفكارها من مشاهدة الأفلام والبرامج العدوانية وتصفحهم لبعض المواقع.

• هناك مواقع وقنوات تروّج لكثير من العادات السيئة، حيث يترسخ في ذهن الشباب أن الإنسان إذا صادفه مشكل أو قلق أو فشل، يتجه إلى شرب الخمر أو التدخين.

• كثير من القنوات وصفحات الإنترنت، تثير في الشباب السلوك العدواني من خلال مواقع الألعاب.

• يستعمل الأطفال حاسة البصر أكثر من استعمالهم للحواس الأخرى، وهذا يؤدي إلى عدم التوافق والتوازن

إن اهتمامنا بالإعلام البديل للحفاظ على الشباب من الانحراف والتأثر بالإعلام الجديد، هو تأسيس لبناء حضارة إنسانية يتعايش فيها الجميع مهما اختلفت الأديان والأعراق والألوان، ذلك لأن الرسالة المحمدية هي رسالة عالمية تحمل المنهج الأقوم للحياة الفاضلة.

في القدرة التحليلية أثناء التفكير، كما تقول الباحثة الأمريكية "باتريسيا ترينفيلد": "إن ما تغير خلال الخمسين سنة المنقضية، هو استخدام الطفل لعينيه أكثر من حواسه الأخرى، مما جعل قدرة الطفل التحليلية البصرية تفوق قدراته التحليلية الأخرى، وهذا الكلام ينطبق على الشباب الذي يقضي أوقاتًا طويلة أمام الإنترنت".

يبقى الإعلام ووسائله من أهم عوامل نقل الحضارة، وإشاعة الثقافة الجادة، ودعم الفكر الصالح، وبث القيم الصحيحة في العادات والسلوك، وإصحاح البيئة الإنسانية والمجتمع البشري، وتحقيق التواصل الاجتماعي والثقافي بين الأفراد والجماعات والأمم؛ ولذا فإن اهتمامنا بالإعلام البديل للحفاظ على الشباب من الانحراف والتأثر بالإعلام الجديد، هو في حقيقة الأمر تأسيس لبناء حضارة إنسانية يتعايش فيها الجميع مهما اختلفت الأديان والأعراق والألوان؛ ذلك لأن الرسالة المحمدية هي رسالة عالمية تحمل المنهج الأقوم للحياة الفاضلة التي تحقق السعادة لبني الإنسان.

واليوم قد دخلنا مرحلة حاسمة، تتطلب منا القيام بأعمال ملموسة لصيانة الشباب، الذي هو حصن الأمة في المستقبل، وذلك من خلال تكثيف اللقاءات العملية والتكوينية في مجال الإعلام، والسعي إلى تطويع هذه الآليات "التقنية الحديثة"، واستنباط وسائل حديثة في الاتصال الإلكتروني تستخدم في تحقيق هدف المشروع الحضاري الإسلامي في تنوير وتحرير عقول الشباب من القيود المادية، وتأهيله للقيام بدوره الحضاري باستخدام أدوات وآليات الإعلام. ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر..

hiragate.com

د. عبد الهادي العوفي*

الزاحف والجزار

١

اتصل بي أحد أصدقائي ذات يوم يسألني عن طائر غريب رآه في مزرعته، ووصفه بأنه طائر كثير التلفّت، جسمه مرقّط، وأعجب ما فيه لسانه الطويل الدبوسي. طلبت منه تصوير الطائر وإرسال صوره إليّ للتأكد من تصنيفه، فوجدته طائر "اللوّاء"، الذي يُعَدّ من أبناء العمومة لنقار الخشب، فكلاهما ينتمي لفصيلة نقارات الخشب. وحينما أبدى تعجبه للاسم، أجبته أن سبب التسمية يعود إلى قدرته على "اللَيّ"؛ أي تدوير رأسه يمينًا وشمالاً بنسبة ١٨٠ درجة، لذا يسمى محليًّا في بعض المناطق "القليلبة".

لهذا الطائر مظهر غريب؛ فمن بعيد قد تظنه سحلية كبيرة قابعة بسكون على جذع شجرة، وحين تقترب تفاجأ بطيرانه، وزاد من غرابته صوته الشبيه بفحيح الأفاعي والذي يصدره أحيانًا.

جسمه بنّي منقّط من الناحية الظهرية ورمادي مموّج بالأسود على الناحية البطنية، يوجد خط أسود يشكل امتدادًا للمنقار ويمر بالعين وحتى نهاية الرأس. ينفرد بخصائص عدة تجعله مميزًا؛ فهو متسلق بارع لجذوع الأشجار، حيث يتسلقها بشكل رأسي، وغالبًا ما يُرى جاثمًا على جذوع وفروع الأشجار، ويساعده في ذلك وجود الأصابع المزودة بمخالب قوية في رجليه، حيث يتمتع بأصبعين اثنين في الأمام واثنين في الخلف، مما يذكرنا بأحذية متسلقي الجبال المزودة بمسامير في أسفلها.

يتمتع طائر اللوّاء بلسان دبّوسي طويل حاد يطلقه على فريسته الحشرة كالسهم فيقتنصها ثم يأكلها، وبنفس الطريقة يتغذى على التمر وثمار النبق.

يملك لسانًا طويلاً محمرًا يتميز بنهايته الدبوسيّة القاسية، وهذا التركيب يجعل من طريقة تغذيته غاية في الغرابة؛ حيث يجثم منتظرًا فريسته والتي غالبًا ما تكون حشرات أو خنافس، وفي لحظة غفلة منها يطلق عليها لسانه الطويل بطريقة تشبه صيد الحرابي فيقتنص الحشرات، وبنفس الطريقة يتغذى على التمر وثمار النبق.. ومن هنا ندرك أن بيئاته المفضلة هي المزارع والأودية التي يتوفر فيها الكثير من الحشرات والثمار.

الصُّرَد الطائر الجزّار

قد يبدو هذا الطائر حين مشاهدته عصفورًا جميلاً يملأ الأجواء بجمال تغريداته، لكن علينا أن لا نغتر بالجمال على الدوام، فربما خبّأ الجمال شراسة وموتًا زُعافًا.

فهو كجندي مغوار (كوماندوز) يجثم على غصن شجرة مستكشفًا المنطقة المحيطة به، وباحثًا عن فريسة غافلة سواء كانت طائرًا في الهواء أو زاحفة متخفية أو قارضًا يتراكض بسرعة بين الأحراش.

يرصد من علٍ ويتحين الفرصة للانقضاض، وفي أحيان عديدة ورغم الرصد الدقيق لا تظهر الفريسة؛ فعندها يعمد لحيلة جاذبة؛ حيث يبدأ في إصدار أصوات شبيهة بالتغريد، فتخرج الفريسة ظنًّا منها بعدم وجود

يصدر طائر اللوّاء -عندما لا تظهر الفريسة- أصواتًا شبيهة بالتغريد؛ فتخرج ظنًّا منها بعدم وجود أيّ خطر، عندها ينقض عليها بشراسة ويفترسها.

يملك طائر اللوّاء قدرة فائقة على الليّ، حيث يستطيع تدوير رأسه يمينًا وشمالاً بنسبة ١٨٠ درجة، ويسمى محليًا في بعض المناطق "القليلبة".

أيّ خطر، إذ ما دام التغريد يملأ المنطقة فبالتأكيد لا توجد طيور جارحة متربصة.. فتبدأ المطاردة بطيران يشبه طيران الصقور، وحين يُنهِك فريسته ينقض عليها بشراسة، فيناوشها ويصارعها، وينقرها بمنقاره الحاد القوي المعقوف، ويخمشها بمخالبه الحادة، ويستمر بالنقر على رأس الفريسة حتى يرديها قتيلة.

وهنا يبدأ الأمر الأفظع؛ حيث يعمد إلى نتف ريش رأس الفريسة، ويكسر جمجمتها ليقتات على مخّها، وبعدها يصرخ صرخة الانتصار.

ثم يحمل بعد ذلك فريسته ويغرزها بشوكة أو سلك شائك، ويعلقها كما يفعل الجزار بذبيحته.. يبقر بطنها ويبدأ في تناول وجبته بكل هدوء وتلذذ ونهم حتى ينهيها. أما فائدة تعليق الفريسة في الشوك، أنها تبقى كمخزون للغذاء، ليقتات عليها حال عدم وجود فرائس طازجة حية، فيعود إليها لاحقًا.. لذا سمي أيضًا بـ"الطائر الجزار". ولكن رغم شراسته وضراوته، فهو يملك قلبًا حانيًا على فراخه، إذ يطعمها الأجزاء الرخوة اللينة من الفريسة، ويعتني بها أيّما اعتناء. ■

(*) أستاذ علم البيئة في جامعة تبوك/ المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

صلاح عبد الستار الشهاوي*

الرياضة وألعاب الكرة
في التراث الإسلامي

١ الألعاب الرياضية في العصر الحديث، ترجع في أصولها التاريخية إلى ألعاب القوى والفروسية في العصور القديمة من حيث المرامي والأهداف وإن اختلفت في الأداء والحركات وضروب الألعاب وفنونها المتعددة والأساليب.

الرياضة في العصر الجاهلي

كان العرب في جاهليتهم يمارسون ضروبًا من الرياضة ذات الهدف المحدد والمقاصد النبيلة، فقد كان العربي يعتمد في رياضته على فرسه وسلاحه، وكانت الممارسة الرياضية والمران اليومي من أهم العوامل في بناء الشخصية للفارس الأصيل في معدنه وتكوينه الجسمانى السليم، واستعداده النفسي والخلقي. فعرف العربي ركوب الخيل والسباق بها، وعرف الكر والفر، والمقارعة بالسيوف والطعن بالرماح والرمي بالقوس، والمصارعة بين ندّين.. كل ذلك رياضة يومية وتدريب عملي له أهميته القصوى في تكوين شخصيته.

الرياضة في التراث الإسلامي

من جملة الأشياء التي حثّ عليها الإسلام وشجعها؛ الرياضة. فلم تهمل الفكرة الجديدة القائمة على التصور الإسلامي لبناء الشخصية المستقلة، بوضع المنهج النظري والعمل في صياغة تكوين الفرد المسلم من حيث بناؤه الجسماني ومقوماته الإنسانية. لقد شجع الرسول ﷺ حركة الفرسان وتدريباتهم اليومية، وشجع رياضة سباق الخيل وأشرف عليها بنفسه؛ عن أنس ﷺ قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى "العضباء" وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: "إن حقًّا على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه" (رواه البخاري).

كما شجع الرسول ﷺ المصارعة والرمي؛ فحين خرج على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا" (رواه البخاري). كما شجع حمل الأثقال، قال ابن القيم: "مر النبي ﷺ بقوم يرفعون حجرًا ليعرفوا الأشد منهم فلم ينكر عليهم"، وورد أنه ﷺ كان يرى أصحابه يتسابقون على الأقدام (الجري) ويقرّهم عليه. وعن عائشة ﷺ أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر قالت: فسابقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، قال: "هذه بتلك السبقة" (رواه أبو داود).

هذا وقد شجع الإسلام المسلمين على أن يكونوا أقوياء؛ فقال الرسول الكريم ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير" (رواه مسلم). وعلى هديه ﷺ سار الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم أجمعين- والتابعون والمسلمون؛ حيث قال عمر بن الخطاب ﷺ: "علّموا أولادكم السباحة والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبًا". ثم إنه ﷺ يرسل رسالة إلى فرسان المسلمين، يأمرهم بأن يلتزموا نظام حياة تكفل لهم القوة، وتمكنهم من الحركة والانضباط الجماعي حيث يقول: "أما بعدُ فاتَّزِروا، وانْتَعِلوا، وارتَدوا، وألقوا الخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعُّم وزِيَّ العجَم، وعليكم بالشمس فإنها حمّام العرب، وتَمَعْدَدوا، واخْشَوْشِنوا، واخْلَوْلِقوا، واقطَعوا الرِكْبَ وانْزُوا على الخيل نَزْوًا، وارْموا الأغراض" (رواه البيهقي).

من جملة الأشياء التي حثّ عليها الإسلام وشجعها؛ الرياضة. فلم تهمل الفكرة الجديدة القائمة على التصور الإسلامي لبناء الشخصية المستقلة، بوضع المنهج النظري والعمل في صياغة تكوين الفرد المسلم من حيث بنائه الجسماني ومقوماته الإنسانية.

وعلى هذا النهج سار المسلمون وأصبح هناك رياضة إسلامية معروفة أوجدتها الحاجة الحياتية الملحة.. وقد اهتم مؤرخو العرب بالرياضة باعتبارها ذات فوائد نفسية وأخلاقية واجتماعية؛ من ذلك ما ذكره المؤرخ العلامة الحسن بن عبد الله في كتابه "آثار الأُول في ترتيب الدول"، حيث يقول: "واللعب بالكرة هو رياضة تامة حسنة، وصفها الحكماء والفضلاء من الملوك لرياضة الجسد، ورياضة الخيل واللعب بالكرة والجوكان واستعمالها بالغدوات من أتم الرياضات وأكملها وأنفعها، لأن من الرياضات ما يختص بالكفوف والسواعد مثل الشباك وتناول الطابة، ومنها ما يختص بأنواع البدن مثل الصراع وحمل الأثقال.. وهذه تعم البدن جميعه وهو يتحرك لها حركات مختلفة؛ والبصر يتبعها، والرأس يلتفت إليها، والأصوات والضجّات ترفع فيها. والخيل ترتاض وتلين رؤوسها للجوال والكر والفر وفيها من طلب المغالبة.. وأما نفع الرياضة بالجملة فظاهر معلوم لما جعله الله في الأبدان من الأخلاط المتغايرة المتغالبة التي موادها من الأغذية المختلفة".

وتحدث عن الفوائد النفسية والخلقية التي تحققها تلك اللعب فقال: "منها السرور والفرح بالظفر، والاستيلاء مع مباشرة التألم من العجز والغلبة ومنها تعود الاجتماع والتدرب، ومساعدة الأصحاب لبعضهم، وتعاضد الأولياء وتعاونهم على الخصوم والأعداء". وذكر ابن النفيس في معرض كلامه عن الرياضة البدنية في

hiragate.com

كتابه "الموجز في الطب": "واللعب بالصولجان، رياضة للبدن والنفس لما يلزمه من الفرح بالغلبة والغضب".

ومما تجدر الإشارة إليه، أن علماء المسلمين أشاروا إلى وجوب تعلم الأطفال والأولاد الرياضة، وعدم إقصارها على الكبار من الشباب والكبار. من ذلك أن الإمام الغزالي أوجب اللعب كل يوم بعد انصراف الأولاد من الكتّاب (المدرسة) فقال: "إن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم إنما يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا". وبلغ من اهتمام الإمام الغزالي بلعب الأطفال والأولاد أنه يرى ضرورة حضور الطفل مشاهدة الألعاب إن لم يتمكن منها، لأنها تروّح عن نفسه وتبعث فيه النشاط وتهذب أخلاقه.. فاللعب مما ترتاح له النفس حتى بالمشاهدة، حيث يقول: "إن أحسن الخلق في تطبيب قلوب النساء والصبيان مشاهدة اللعب، فهي أحسن من خشونة الزهد والتقشف بالامتناع".

أما ابن مسكويه فقد قال: "يجب أن تكون ألعاب الصبيان تناسب أجسامهم الصغيرة ولا ترهقهم، وأن تكون هذه الألعاب جميلة ليستريح بها الصبي من عناء الدرس وينشط بالعمل". أما عتبة بن الزبير فقد كان من أكثر خَلق الله اهتمامًا بالألعاب، لأنها تجعل من الشخص إنسانًا قويًّا في جسمه وفي خُلقه، فكان يقول: "يا بني العبوا فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب".

أهم الألعاب الرياضية التي مارسها المسلمون

إضافة إلى الألعاب الشهيرة التي مارسها المسلمون كالمصارعة والسباحة والرمي والسباق والقفز وحمل الأثقال وألعاب الخيل والفروسية والصيد، مارسوا أيضًا ألعاب الكرة وكان لهم الفضل في تطويرها ونقلها إلى الأمم الأخرى.

• **لعبة الصولجان:** وحديثًا تسمي لعبة "البولو" (Polo). والصولجان لعبة الفرسان، حيث يستعملون نوعًا من العصي المعقوفة الطويلة تسمى الصولجان أو الجوكان، طولها يبلغ أربعة أذرع، وتتصل برأسها خشبة مخروطة محدودبة ينوف طولها عن نصف ذراع، وبداخلها حشو بهيئة الشبكة تدفع العصي الكرة مثلما تدفع كرة الهوكي في أيامنا هذه ولكن من فوق الحصان.

ويقال إن أول من لعب بالصولجان الشاعر عدي ابن زيد، كما كان الرشيد أول من لعبها من الخلفاء وأنشأ لتلك اللعبة ميدانًا بجانب قصره. وقد أولى سائر الخلفاء العباسيين تلك اللعبة عنايةً كبيرة؛ من ذلك ما يروى أن المعتصم، قسم أصحابه يومًا للعب، فجعل قائده الأفشين في فريق غير فريقه فقال الأفشين: "يعفيني أمير المؤمنين من هذا"، فلما سأله عن السبب قال: "لأني ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل"، فاستحسن المعتصم ذلك منه وجعله في فريقه. ومن أشهر من أُغرموا بها أحمد بن طولون، والخليفة العزيز الفاطمي، ونجم الدين، والملك الظاهر بيبرس، والملك الناصر محمد بن قلاوون.

وقد انتقلت اللعبة عن طريق العرب إلى أوروبا، حيث عُرفت مقاطعة "لنجدوك" الفرنسية باسم "لاشكان" (جوكان) في العصور الوسطى وهي التي تُعرف اليوم باسم "البولو"، وليس صحيحًا ما يقال إن تلك اللعبة قد دخلت أوروبا -لأول مرة- عن طريق ضابط بريطاني عاش في الهند في القرن التاسع عشر.

• **لعبة الهوكي:** كانت تسمى "الهولة" (وهي عربية الأصل)، انتقلت إلى البلاد الغربية فارتقت إلى مصاف الألعاب العالمية. ويؤكد بعض الباحثين أن لعبة "الحُكشة" المصرية التي تطورت إلى لعبة "الكجة" ثم تطورت اسمًا وموضوعًا مرة أخرى إلى لعبة "الهوكي" (Hockey) التي تدفع الكرة فيها بعصا تشبه "الحجن". و"الهولة" هي عبارة عن كرة ملفوفة من القماش تخيط بإبرة كبيرة (المخيط)، وهي ذات أحجام مختلفة منها الصغير (التي يلعب بها الآن في تشكيلات فريق الهوكي الحديثة)، ومنها الحجم الكبير الذي لا يزيد على حجم كرة القدم. وكان من قوانين هذه اللعبة أن الفريق الخاسر يقيم وليمة أو دعوة غذاء للفريق الفائز.

• **لعبة التنس:** يقول الأستاذ إبراهيم الفحام عن أصل لعبة التنس (Tennis) وكيف تطورت: "يرجح بعض الباحثين أن لعبة التنس قد تطورت من لعبة الطبطات العربية (الطّبطابة خشبة عريضة يلعب بها بالكرة)، وأن

hiragate.com

الكلمة قد اشتقت من مدينة "تينس" المصرية الواقعة في منطقة "بحيرة المنزلة بشمال الدلتا"، لأن منسوجاتها التي اشتهرت بها منذ القدم كانت تدخل في صناعة كرات التنس.

• **لعبة الراكت:** تكاد تجمع المعاجم الأوروبية التي تبحث في أصول الألفاظ، أن كلمة "الراكت" (Rocket) الإنجليزية، وكلمة "Raquette" الفرنسية وتعني مضرب الكرة، مشتقة من الكلمة العربية "راحة" أي راحة اليد، ولا تزال كلمة "الراحة" تطلق في بعض اللهجات العربية الحديثة على شيء يشبه مضرب الكرة هو راحة الخباز التي ينقل بها الأرغفة.

• **كرة القدم:** كرة القدم هي اللعبة الأكثر شعبية في العالم، واللعبة المعشوقة للتفرج، واللعبة التي يمارسها الأطفال والشيوخ، والتي تمارَس تلقائيًّا منذ الصغر.

ومع أن الكرة هي قطعة من الجلد المنفوخ لا جمال فيها ولا فتنة، ولا تصلح حتى أن توضع في ركن بالبيت، فإنها تصنع الأفاعيل في الأجيال وأجناس البشر. ومع أن قانون لعبة كرة القدم لم يرتفع أبدًا إلى قانون الشطرنج أو أي لعبة فكرية أو بدنية، إلا أنه يحفظ قواعدَه الفقراءُ والأغنياء، والنساء والشيوخ، والسياسي وغير السياسي، بل يحفظه كل الناس من البشر.

ولقد عَرفتْ هذه اللعبة أممٌ كثيرة ولكن بصورتها البدائية، من تلك الأمم الصين، والهند، واليونان، والرومان وغيرها. وقد وُجدت نقوش فرعونية على جدران معبدي الأمير خبتي، والأمير باكت، لنسوة يلعبن بكرات مستديرة. وأكد العلماء أن هذه النقوش تعود إلى عام ٢٠٤٠ ق.م، فيما يقول المؤرخون الصينيون إن أول مباراة دولية في لعبة كرة القدم جرت بين الصين واليابان في عام ١٠٠ ق.م. وعن المصريين القدماء نقل الفينيقيون ألعاب الكرة، فانتشرت في اليونان ومنها أخذ اللعبة الرومان وعبَروا بها المانش إلى بريطانيا.

ويَعتبر البعض أن العرب والمسلمين أول من وضع قواعد عامة لكرة القدم، ونظّموها وابتكروا لها وسائل تجعلها لعبة جميلة ومسلّية في آن واحد.

وكانت الكرة في أول الأمر تُصنع من الحجارة والآجر، ثم الخرق، وكانت الكرات المصنوعة من الخرق تسمي "اللوثة"، وكانت تصنع أحيانًا من مادة لينة تشبه المطاط وإن لم تكن منه، وكانت تُكسى أحيانًا بالجلود أو الفراء وخاصة فراء الأرنب فتبدو مثل الكرة المعروفة حاليًّا.

ومن الثابت تاريخيًّا أن تراث الأدب العربي مليء بشتى أنواع الرياضة البدنية، منها على سبيل المثال: العدو، الفروسية، اللعب بالعصا، حتى الرياضة الذهنية الشطرنج والألغاز والمسائل الحسابية.. أمّا بخصوص كرة القدم التي هي أهم وأشهر اللعبات الرياضية في العصر الحالي، فإننا إذا نظرنا في صفحات تراثنا الأدبي شِعره ونثره، لوجدنا عنها الشيء الكثير من الذكر، يقول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم:

يُدَهدونَ الرؤوس كما تُدَهْدي
حَزاوِرةٌ بأبطَحِها الكُرِيْنا

يدهدهون: يدحرجون، الحزاورة: الغلمان الغلاظ الشداد، الأبطح: الملعب مكان مطمئن من الأرض، الكرينا: الكرات أو الأكر (جمع كرة).

ومن أبلغ ما قرئ حول الكرة من كتاب محاضرات الأدباء، وهو تصوير بديع لحالة حبها ثم ركْلها، قول أبي قريش بن أسوط يصف الكرة:

يحبُّ دنوَّها لهفًا إذا ما *** دنتْ منه بكدٍّ أي كدِّ
قلاها ثم أتبعها بضربٍ *** وأعقب قربها منه ببعدِ

وعن كرة القدم في تراثنا النثري، نجد قول ابن خلدون في تاريخه يصف معركة دارت بين فريقين: "ولأنهم -على ما يظهر- كانوا يواجهون القتال أبدًا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر".

كما ورد في كتاب "نثار الأزهار في الليل والنهار وأطايب الأصائل والأشجار" لابن منظور صاحب لسان العرب المتوفى (٧١١هـ-١٣١١م): "الدبوق كرة شعرية ترمى في الهواء، ثم يتلقاها الغلام ضاربًا لها تارة بصدر قدمه، وتارة بالصفح من ساقه اليمنى رادًّا إيّاها إلى العلو على الدوام". ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

hiragate.com

د. الشريف حاتم العوني*

رد الاستدلال المجتزأ إلى الاستدلال الشامل

إن من أكبر الأخطاء التي يقع فيها العاجزون عن تنقية الاجتهادات البشرية في فهم الوحي من الكتاب والسنة، هو الوقوع تحت أسر النصّ الواحد دون استيعاب النظر إلى سياقه الخاص وإلى سياقه العام ضمن الوحيين كاملين.

ومن المعلوم في أصول الفقه الإسلامي، التي عمل بها فقهاء المسلمين جميعُهم تطبيقًا لقواعدها ومناهجها منذ جيل الصحابة ﷺ إلى يوم الناس هذا، والتي بدأ تدوينُها في نهاية القرن الهجري الثاني على يدَي الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) في كتابه "الرسالة"، "أن السياق من أكبر الأمور تأثيرًا على فهم النص، وهي سياقات متعدّدة تبدأ بسياق الآية ولِحاقها -الآية التي قبلها والتي بعدها- وتمر بسبب نزول الآية، ثم بموضوع السورة، ومرورًا بزمن نزولها -مكيةً

كانت أو مدنية- إلى سياق القرآن كله في الانطلاق من هدايته العامة وأهدافه الكبرى".

وهذا يعني أن فهم نص الوحي لا يمكن أن يكون منهجُه صحيحًا إذا أغفل النظر في هذه السياقات جميعها، وأن هذا الخلل المنهجي متفَقٌ على كونه خللاً لدى جميع علماء الأمة.

ومن هنا يتبيّن أن من اكتفى بظاهر آية مقتطعةٍ عن تلك السياقات، سيقع غالبًا في خلل منهجي في فهم القرآن الكريم، وعندها يجب عدم الرضوخ لاجتهاد هذا المخطئ، مع أنه يستدل لاجتهاده بوحي الله تعالى.

ومن أخطاء تراثنا التي غفلت عن هذه الحقيقة، الخلل الذي وقع في فهم قوله تعالى عن الجزية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(التوبة:٢٩).

وسأقتصر في هذا الموطن، على نقاش الجزء المتعلق بالجزية، أعني قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وما المقصود بالصَّغار الوارد في الآية.

الجزية في الإسلام

وقبل بيان الخلل الذي وقع في تراثنا في فهم هذا الجزء من الآية، نريد أن نعرّف بالجزية ومكانتها في الإسلام.

إن "الجزية" في الإسلام، هي قدْرٌ من المال يفرضه الحاكمُ المسلم على غير المسلمين الذين يعيشون في بلاد المسلمين، لا يكون فيه إضرار ولا إجحاف بهم، والمقصود من فرضها على غير المسلمين؛ أن تكون دليلاً على رضوخهم لحكم دولة الإسلام.

كما أن "الجزية" من وجهٍ آخر تشبه الضرائب في الدولة العصرية، وهي المال الذي يقدمه القادر من المواطنين إلى الدولة مقابل بعض الخدمات التي تُقدمها لهم. والمسلمون في الدولة الإسلامية تجب عليهم الزكاة، ويجب عليهم حماية الدولة والدفاع عنها وأُسقط ذلك عن غير المسلمين، فجاءت الجزية على

إن "الجزية" في الإسلام، هي قدْرٌ من المال يفرضه الحاكمُ المسلم على غير المسلمين الذين يعيشون في بلاد المسلمين، لا يكون فيه إضرار ولا إجحاف بهم، والمقصود من فرضها على غير المسلمين؛ أن تكون دليلاً على رضوخهم لحكم دولة الإسلام.

غير المسلمين لتكون مقابلاً ماديًّا لقاء حمايتهم ولقاء تمتعهم بالمنافع التي تقدمها الدولة الإسلامية لرعاياها من جميع الأديان مع ما فيها من معنى رمزي، وهو أنها إعلان لخضوعهم للدولة الإسلامية ولأحكامها.

ولكون الجزية لم تُضرب على أهل الذمّة إضرارًا بهم، فإنها لا تؤخذ أصلاً من صبيّ ولا امرأة ولا من مجنون، ولا تؤخذ الجزية من الفقير، بل إن الفقير من أهل الذمّة يُرزق من بيت مال المسلمين، ولا تؤخذ الجزية من شيخ فانٍ ولا أعمى ولا مريض لا يُرجى بُرْؤه حتى وإن كانوا جميعًا أغنياء، ولا تؤخذ الجزية من الرهبان المنقطعين للعبادة، ولا تؤخذ من الفلاحين الذين لا يُقاتلون.

الصَّغار وكيف نفهمه؟

ومع أنني لست في سياق شرح تشريع الجزية ومعناها، لكن إنما ذكرت المختصر السابق عنها تمهيدًا لبيان معنى "الصَّغار" الذي ورد في الآية، لبيان صورة من صور الخطأ الذي وقع في بعض تراثنا الاجتهادي في فهمه، وكيف يمكن تصحيحه؟ وكيف وقف العلماء من هذا الاجتهاد الخاطئ؟

إذن ما هو معنى "الصَّغار" الذي جاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؟

لقد ذهبت بعض اجتهادات علمائنا السابقين أن المقصود بالصَّغار: القهر والإذلال، ولذلك صرَّحوا بصور من هذا الإذلال، وهي صورٌ لم يدلّ عليها دليل من الكتاب والسنة. ولذلك ردّ عليهم فقهاء آخرون، وبيّنوا أن تلك الصور ليست من دين الله تعالى في شيء،

hiragate.com

وأن المقصود بالصَّغار الوارد في الآية هو الرضوخ لحكم الإسلام فقط.

فانظر كيف وقع بعض العلماء في خطأ الفهم لما استقلَّ نظرُهم في لفظةٍ من آية "الصَّغار"، واجتزؤوها من بين نصوص الوحي وقواعده الكلية، وذهلوا عن تطبيقات النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ﷺ، وذهلوا عن نصوص كثيرة توصي بأهل الذمة وتحرّم إهانتهم وإذلالهم.

فقد قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإنّ لهم ذِمّةً ورحِمًا" (رواه مسلم).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "أُوصي الخليفة من بعدي بذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ أن يُوَفَّى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَل مِنْ ورائهم، وأن لا يكلَّفُوا فوق طاقتهم".

وقال ﷺ: "إن الله ﷻ لم يُحِلَّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضَرْبَ نسائهم، ولا أكلَ ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم" (رواه أبو داود).

فأين هذه النصوص الواضحة التي تنهى عن ظلم أهل الذمة وعن إذلالهم ممن تمسك بظاهر لفظة من آية؛ ليجعلها دالة على ما يخالف مثل هذه النصوص؟!

تفسير الإمام الشافعي للصَّغار

فانظر أولاً بماذا فسَّر الإمام الشافعي هذا الصَّغار تفسيرًا موافقًا للاستدلال الشامل غير المجتزئ؛ حيث قال الإمام الشافعي في كتابه "الأم": "وسمعتُ عددًا من أهل العلم يقولون "الصَّغارُ" أنْ يَجري عليهم حكْمُ الإسلام".

فالصَّغار عند الإمام الشافعي ليس هو إذلالهم، بل هو خضوعهم لأحكام الدولة التي ارتضوا العيش فيها، وارتضوا احترام قانونها الإسلامي العام، مع حفظ حقهم هم في حرية البقاء على دينهم (حرية الاعتقاد) وفي التزام أحكام دينهم فيما بينهم (حرية ممارسة الشعائر فيما بينهم). وهنا ينقل الإمامُ الشافعي الفهم المستقرّ عند عددٍ من علماء السلف -من أتباع التابعين- للصَّغار الوارد في نصّ الآية، ويذكرُ تصوّرَهم الفقهي للمراد منه، ثم يرتضي الإمام الشافعي هذا التفسير والتصوّرَ منهم، بل لا يحكي فيه خلافًا عن أحدٍ من علماء السلف، مما يدل على أن هذا هو الفهم الشائع المشتهر المستقر في ذلك الجيل الفاضل.

ولذلك لما فسّر بعضُ علماء الشافعية -منهم الإمام الغزالي- الصَّغارَ بأنه الذل والإهانة، تعقّبه الفقيهُ الشافعيُّ الإمام أبو عمرو ابن الصلاح (ت٦٤١هـ) بقوله: "ما ذكره من تفسير "الصَّغار" هو عند صاحب التهذيب وغيره خلافُ الأصحّ، وهو أيضًا خلافُ نصِّ الشافعي، فإنه نصّ على أن الصَّغار هو جريانُ أحكام الإسلام عليهم".

وعندما ذكر بعض العلماء هيئةً مخصوصةً لتسليم الجزية تتضمَّن إذلالاً للذمي؛ تعقّب الإمام النووي هذه الهيئةَ بقوله: "قلتُ: هذه الهيئة المذكورة أولاً لا نعلم لها على هذا الوجه أصلاً معتمدًا، وإنما ذكرها طائفة من أصحابنا الخراسانيين، وقال جمهور الأصحاب: تؤخذ الجزية برفقٍ كأخذ الدُّيون.

فالصواب الجزم بأن هذه الهيئة باطلة مردودة على مَن اخترعها، ولم يُنقل أن النبي ﷺ ولا أحدًا من الخلفاء الراشدين فعل شيئًا منها مع أخذهم الجزية. وقد قال الرافعي -رحمه الله- في أول كتاب الجزية: "الأصح عند الأصحاب تفسيرُ الصَّغار بالتزام أحكام الإسلام وجريانها عليهم"، وقالوا: "أشد الصَّغار على المرء أن يُحكَم عليه بما لا يعتقده ويضطر إلى احتماله".

وفي ذلك يقول الإمام القرافي (ت٦٨٤هـ): "إن عَقْد الذّمة يوجب حقوقًا علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذمّةِ الله تعالى، وذمّةِ رسوله ﷺ، ودِين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غِيبة في عِرْض أحدهم أو نوع من أنواع الأذيّة أو أعان على ذلك، فقد ضيّع ذمّة الله تعالى وذمّة رسوله وذمة دين الإسلام".

وهكذا يتبيّن أن من وسائل تنقية التراث، إرجاع اجتهاداته التي تعتمد استدلالاً مجتزَءًا إلى بقية نصوص الشرع وقواعده القطعية. ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

قصة

سعاد محمد اشوخي*

وشوشة مع العارف

جلستُ مساء ذات يوم أُحادث نفسي عن الحكمة التي يدَّعيها الفلاسفة، والمدينة الفاضلة التي بناها أفلاطون ولم يعمرها ليومنا أحد. جلستُ أبكي الأخلاق والفضيلة والأدب والمؤدِّبين؛ فلامتني نفسي وهي تقول: إننا نعيش فوضى الأخلاق مذ تلوَّثَ معين الصدق بالكذب والرياء، مذ رفعت الرّذيلة على الهَام، وخُسِف بالعفّة تحت الأقدام؛ فاختلفت في عيوننا الحقيقة، وضاعت منا الطمأنينة، وعلا صوتُ الفِرَق والأحزاب. التحق بنا شيخٌ مهيبٌ عارفٌ يشعّ وجهه نورًا ووقارًا، فقلت: ما قولك في هذا يا شيخ؟.

قال: إن الهدوء الذي نفتقد ليس سكوت الطفل الرضيع في البيت أو عند الجيران، ولا ضجيج السيارات في الخارج، ولا سكون الأحياء.. إن الهدوء الذي نفتقد هو طمأنينة الروح؛ الروح التي إذا تدبَّرت ملكوت الله علمتْ وعملتْ بصدق، وبنت لها جنة في الدنيا بعيدة عن الهوى والأهواء.

حتى قال: إننا حقًّا نعيش أنواع الضياع إلا من عرف ذروة الإيمان ومنتهاه.

لا شيء لـك، حتى القبر الذي توضع فيه ليس لك؛ سـيأتي يوم ويوضع فيه ميتٌ آخر بعد أن تزدحم الأرض بالقبور.. ولستَ إلا عابرًا في هذه الدنيا الزائلة، وإذا حاولت الإمساك بها، تحولت إلى سراب فلا تبالي.. كلما سرت نحوها زادت تعجرفًا؛ تمنّيك بالآتي وهي تحفر تحتك حفرًا.

قلت: وما الضياع؟

قال: الضياع مفهومٌ أكبر من أن يعرّفه ابن فارس وابن منظور والموسوعات.

الضياع: ضادٌ حائرةٌ؛ ضبابةٌ تُغشي العيون فلا تعرف للغد طريقًا، توحَّدت مع المجهول فكانت على بني آدم ضدًّا.

ياء يأسٍ؛ ينبوعٌ من الآلام البئيسة المتجددة لم تجد مع كل هذه المستنقعات إلى البُرْءِ سبيلاً يسيرًا.

ألف الألفة والأخوَّة الميّتة وكل الأواصر المقطوعة حتى صار كل ذي روحٍ على البسيطة فردًا أحدًا.

عين العداوة؛ عين عرَّافةٍ تزعُم السفر في المستقبل والغد البعيد؛ فتقرأ الفناجين لكنها عمياء تمشي ذات اليمين وذات الشمال على غير هدًى وزِد عِوجًا.

الضياع أكبر من أن تجمع هذه الحروف فتحُدَّه.

قلت: زدني.

قال: الضياع أن تبحث عن نفسك في عينيك فلا تجدها.

الضياع أن تبحث عن الإيمان في الجوامع والكنائس والبيع فلا تجده.

الضياع أن تبحث عن الحب في القلوب؛ فتسألك القلوب عن أيّ غريب تبحث.

الضياع أن تقصد المحاكم بحثًا عن العدل؛ تجد الميزان رسمًا يُزيّن ذا الجدار وذا الجدار.

الضياع أن تقصد المدارس والجامعات بحثًا عن العلم والأدب؛ ولا تجد غير أجسادٍ تمشي دون العلم والأدب.

الضياع أن تقصد البحر بحثًا عن الهدوء والطمأنينة؛ فترمي لك الأمواج في غفلةٍ من حوتها صيدًا من بني جلدتك.

قال: أعرفتَ ما الضياع؟

قلت: لكن كيف السبيل إلى الخلاص؟

أجاب العارف: إنك ميّت لا محال. فاختر في الأُولى ما ستكون عليه في الأُخرى تجد الخلاص، فإما أن تختار تلك الطريق المشعّة بالنور العبِقة بأنفاس الصالحين الأخيار الطاهرين، أو تختار طريقًا محفوفة بالشوك والعَوْسج آخرها حالك كسواد الليل.. فإذا وقعت عينُك على الطريق الأولى؛ أعربت بالدمع المنساب فرحًا وطمأنينة فكان الخلاص، أما إذا سارت في الثانية جوارحك، فاعلم أنك قد رغبت عن الصواب ولن تزيد إلا ضياعًا وهلاكًا.. فالزم الأولى لا صُمّ صداك، وتذكَّر أن لا شيء لك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ستغادرها كما جئت ذات يوم وحيدًا.

قلت: زِدني وأَفْصِحْ.

قال: لا شيء لك، حتى القبر الذي ستوضع فيه ليس لك، سيأتي يومٌ ويوضع فيه ميتٌ معك سهوًا، أو عمدًا، أو بعد أن تُنسى، أو تزدحم الأرض بالقبور.

المهم لا شيء لك، لست إلا عابرًا في هذه الدنيا الزائلة، وهي أمامك تتزين بكل ألوان الجمال، وإذا حاولت الإمساك بها، تحولت إلى سراب فلا تبالي. مغرورة جدًّا فلا تصدقها، وكلما سرت نحوها زادت تعجرفًا؛ تمنّيك بالآتي من الأيام وهي تحفر تحتك حفرًا تفضي بك إلى وادٍ جارف لا قرار له.. فدَعْها ودُعَّ نفسك عن الشبهات.

ثم قام كالذي أصابه الفزع راحلاً وعاد يهمس في أذني: الزم الأولى لا صُمّ صداك.

رتَّبَ وشاحه الأبيض على ظهره وانصرف بخطوات سريعة يطوي الظلام. وما زلتُ أراقبه حتى وقع في نفسي صدق ما قال، فعلمت حقًّا أن أول الضياع إنما هو ضياع النفوس وغرقها في الأهواء، وأن النجاة لا تكون إلا بالرجوع عن هذا، إلى الصواب فُرادى وزرافات. ■

(*) كاتبة وباحثة مغربية.

hiragate.com

محمد أبو حفص السماحي*

همّة صقر

أيها الطالب عرفـانًا ونورْ ... أيها الباحث محموم الشعور
أيها المسجونُ في حيْـرته ... أيها المسكون بالشوق الخطيرْ
كل من سار على الدرب انتهى ... به توًّا حيث يرتـاح الضمير
إن هذا الدرب درب النبـلا ... ينتقون اللب من بين القشورْ
همهم في العمر همٌّ واحـد ... وهمـوم الناس كالناس كثيرْ
عندما ألفَوْا خبيرًا في السُّرى ... أسلمـوا النفس لذياك الخبيرْ
مثل موسى حين رام المُبتـغى ... صار مأمورًا مشى خلف أميرْ
لا تكن ديكًا سجيـن الخُمّ لا ... يبرح السـاحة لا يومًا يطيرْ
يتهادى خيلاءً صلفـا ... شامخ العُرف مليئًا بالـغرورْ
راضيًا بين دجاجـات بما ... يلقط المسكين من سقط البذورْ
راكن الجنب إلى عاداتـه ... عبد أهوائـه معروف المصيرْ
يحسب الدنيا انتهتْ في خُمّـه ... وعلى بؤرتـه الكـونُ يدورْ
ولْتكنْ صقرًا أبيًّا شامـخًا ... ليس في الطيـر له ند نظيـرْ
عالي الهمة شهمًا لبـقًا ... يعشق الأرقى وذروات الأمورْ
ليس يقتات سوى من صيـده ... أكثر المـن أذىً مَنُّ الحقيـرْ
يقتني الحي ويأبى ميتـة ... إنه الصقر على نهج الصقورْ
يشرب الماء زلالا نـادرًا ... من شفاه العين في أعلى الصخورْ
يركب الصعب وما أسهله ... مركبًا عند المريد المستنيـرْ

(*) شاعر مغربي.

د. مصطفى الزباخ*

الوعي بقيم الاستقلال الحضاري عند المفكر فتح الله كولن

المتأمل في مسرح تطور الفكر النهضوي في العالم الإسلامي، يجد أن سعة مساحة التخلف التي عاناها العالم الإسلامي بفعل آفات التجهيل والتغريب والتخلف الموروثة من عهود الاستعمار والاستبداد والانحطاط، قد عمّقت الشعور بالقلق الحضاري، وتنامت معها الأسئلة القلقة لدى رواد الفكر الإصلاحي الحالمين بالمشروع الحضاري الجديد. وإذا كان هذا القلق أمام ظواهر التجهيل والتغريب والاستبداد والاستعمار قد نوَّع من أشكال وعيهم، حتى ليخيل لنا أنهم تخصصوا في كل ميدان رأوه كفيلاً بتقدم العالم الإسلامي، فكان الرجل الحضاري جمال الدين الأفغاني، والرجل الديني محمد عبده، والرجل السياسي عبد الرحمن الكواكبي ..إلخ، إلا أن الألفية الثالثة، بما حملته من تحديات مهددة للهويات الحضارية، ومستجدات علمية وتكنولوجية وأيديولوجية مشككة في القيم الحضارية، قد تعاظم معها القلق القيمي أكثر، حتى أصبحنا نسمع ما يُسمى بالحرب الحضارية الجديدة، والحرب القيمية كما نجد عند "طوني بلير" الذي قال: "لقد فضلنا معركة القيم على معركة الأمن".

وتنامى هذا القلق لدى رموز مضيئة ممن تناغم في فكرهم الإصلاحي الوعيُ التاريخي الداعي إلى حماية

الهوية الحضارية، والذاتية الثقافية، في غير انغلاق بالوعي الحضاري المنفتح على العصر وعطاءاته الحضارية في غير ذوبان.

ويعتبر المفكر محمد فتح الله كولن من هذا الرعيل الذي جمع في معالجته بين الأدب والغضب معًا، وبين أشكال الوعي المختلفة: الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية، حتى يصح أن يقال فيه "إنه جمعٌ بصيغة المفرد".

ركائز الفكر الإصلاحي عند كولن

وبقراءة عجلى لمنظومة الفكر النهضوي عند المفكر محمد فتح الله كولن، يمكن القول -اختصارًا- إنه "مهندس البناء الحضاري للعالم الإسلامي بامتياز"، وأن مادة فكره الإصلاحي ترتكز على ثلاثة أشكال من الوعي، هي الوعي بالخصوصيات، والوعي بالتحديات، والوعي بالاحتياجات.

١- الوعي بالخصوصيات

لقد شكّل الوعي بخصوصية الإسلام وتميزه، وبهويته الحضارية وذاتيته الثقافية، المركز الرئيس في فكره الإصلاحي، باعتباره نظامًا شموليًّا وواقعيًّا متميزًا في رؤيته للإنسان والكون والحياة. وبهذا لا يمكن وسمه بالاشتراكية والرأسمالية والمثالية وغيرها من الأيديولوجيات الوضعية بمعانيها الغربية؛ فهو كما يقول تحت عنوان "الطابع الإسلامي للتصور الإصلاحي"، نظام فريد واسع العناية بكل شيء، وهو بذلك حاضن لأرقى القيم الإنسانية التي يعتقد البعض أنها منتج غربي؛ كالحرية، والمساواة، والعدالة، وحقوق الإنسان.. وليست هذه المبادئ كالديمقراطية في الحضارة الغربية إلا وسيلة للهيمنة والاستعلاء، بينما هي في الإسلام مبادئ "لرضا الله وسعادة البشر"، ويعني هذا في المنظومة القيمية الإسلامية، دعوة إلى تعزيز "قوة الحق" و"قوة المحبة"، وليست دعوة إلى "حق القوة" و"محبة القوة" كما نجد في التوجهات الحضارية الجديدة. وإذا كان الإسلام رسالة قيمية، فإنه يدعو إلى "إعمار الحياة الدنيا التي قد تبدو محتقرة لدى البعض" كما يقول. وبذلك يكون الإسلام دعوة لإقامة ما هو

الإسلام اليوم ينقصه المسلمون المفعّلون لتعاليمه السامية وقيمه الحضارية ومبادئه الإنسانية، ومن ثم تبقى الحاجة ماسة إلى تحرير العقول والأفهام من سوء الفهم، ومن الصور النمطية المسيئة جهلاً أو تجاهلاً للإسلام.

ذو قيمة بالنسبة للوجود الإنساني، مصححًا المفهوم العبثي للوجود، والفعل البشري اللامعقول، استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وبهذا التوجه القيمي السامي للإسلام، كان صلاح الإنسان وعمارة الكون وتناغم الكائنات -في المنظور الإصلاحي عند كولن- وتعزيزًا لفكرة الريادة الحضارية للإسلام.. يمضي "كولن" كاشفًا عن إسهامات علماء الإسلام التي أضاءت دروب التقدم والإبداع عند الغربيين -كالرياضيات عند الخوارزمي، والبصريات عند ابن الهيثم، والاجتماعيات عند ابن خلدون، والطب عند ابن سينا، والكيمياء عند جابر بن حيان- لافتًا النظر إلى العلّية، أو المعقولية التي كانت مصدرًا لهذا البناء الحضاري عند المسلمين.

وإذا كان البابا "بنيدكت السادس" اتهم في محاضرته بالجامعة الألمانية عدم اهتمام الإسلام بالنظر العقلي، فإننا نجد كولن في بحثه "المعقولية ووجهان للعقل" يميز بين نوعين من العقل، داعيًا إلى العقل السماوي الضابط للشهوات والانحرافات قائلاً: "إن العقل هو العنصر الأساسي للتفكير، والجوهر الأول للمحاكمة المنطقية".

وفي هذا المنحى الداعي إلى إعمال العقل، يلتقي مع الشيخ محمد عبده الذي يقول: "فقد أمر الكتاب بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون"، ولكن أيّ عقل يدعو إلى اتباعه كولن؟ باعتباره ممثلاً للفكر التنويري الإسلامي، فقد اختلف مع حركة التنوير الأوروبي، التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عند ديكارت، وفولتير، ممن جعلوا

hiragate.com

سلطة العقل فوق سلطة الكنيسة، ونزْع وصفة القداسة عن الدين، يقول: "إن فلسفة العلم في أوروبا أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين فخلّف ذلك انفصامًا بين العقل والقلب". فالعقل عنده وإن مال إلى اعتبار أن المدركات الجوانية القلبية لها شأنها في معرفة الحقيقة، التقاء مع قول الشاعر:

قلوب العارفين لها عيون *** ترى ما لا يراه الناظرون

فإنه أكد التصالح والتفاعل بين العقل والعلم، بين العلم والدين؛ حتى يمكن اعتباره من دعاة "العقل العالم" و"العلم العاقل".

ومن أبرز سمات الوعي بالخصوصيات عنده ما يلي:

أ- تحديد المنطلقات والعلاقات والغايات في أي مشروع حضاري منتظر: فهو يرى أن الأمة التي لا تعرف من أين تنطلق وأين تنتهي وكيف تسير؛ لا يستقيم سيرها الحضاري، فيقول: "إن الأمم التي لا توجد لها أهداف سامية ومثُل عليا، لا تقطع شوطًا بعيدًا".

بـ- تكامل الحضارات: في رأيه؛ الحضارات نتاج تفاعل بين مختلف العبقريات، ومن ثم فهي "أخذ وعطاء، وتأثير وتأثر دائم".. من هنا نرى أنه كان يؤمن بحتمية التلاقح والتفاعل بين الحضارات مبطلاً بذلك نظرية "هنتغتون" الذي قال بحتمية صدام الحضارات، وبما قاله قبله الشاعر البريطاني "كيبنلج": "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا".

جـ- استقلال الهوية الحضارية والذاتية للمجتمعات الإسلامية: فتح الله كولن يعتبر الثقافة من الطاقات المتجددة التي تمد الأمم بقوتها ومناعتها، فيدعو إلى ثقافة "متحررة من الأفكار الماسخة والغريبة"، والمحافظة على نفسها، والتي تمد الإنسان بالحياة كالهواء والماء.. وإذا كان يدعو إلى ثقافة منفتحة تتبادل التأثير المتبادل كما يقول، فإنها يجب أن تحافظ على قامتها من السقوط أمام الرياح الماسخة، وفي ذلك يلتقي مع "غاندي" الذي يقول: "أريد أن تهبّ بجوار بيتي كل رياح العالم، لكنني أرفض أن أسقط أمامها". وبذلك يدعو إلى "الثقافة الأصيلة والمعاصرة التي تنبع من جذورها وتتفاعل مع الثقافات العالمية".

ومن ثم فإنه دعا إلى ثقافة تتميز بالسمات التالية:

- سلطة الثقافة لا ثقافة السلطة المنحنية أمام الضغوط الخارجية والرسمية.
- ثقافة البناء التي تبني بالمقدس لا بالمدنس حياة الإنسان وعمارة الوجود.
- ثقافة قيمية تتناغم فيها الأبعاد الأخلاقية والعلمية والحماية.
- ثقافة الانتماء التي ترتبط بمقومات مجتمعها وجذور حضارتها.

٢- الوعي بالتحديات

لقد عرَف العالم الإسلامي بمطلع الألفية الثالثة، تحديات متعاظمة ومتغيرات متسارعة وتيارات فكرية وأيديولوجية متنوعة، هددت مخاطرُها قيمَ المجتمعات وأمنَها، فتعاظمت معها آفات الحروب والإساءات للحضارات، وظواهر التطرف، وهجرة العقول، والعولمة العابرة للقارات انعكست آثارها سلبًا على المجتمعات الإسلامية.. فكانت مادة عمل المفكر "كولن" على معالجتها وتنبيه الغافلين إلى مخاطرها ومنها:

أ- ثنائية القديم والجديد أو الأصالة والمعاصرة: فقد أوجدت هذه الثنائية انفصامًا في شخصية المسلم الذي وقف موقفًا متناقضًا، موقفًا حائرًا في الجواب عن سؤال: كيف أبقى محافِظًا على هويتي وفي الوقت نفسه أكون معاصرًا منفتحًا على العصر ومستفيدًا من عطاءاته؟

ومن هذه المواقف المزدوجة، نجد كولن يعلن سقوط الثنائية بين القديم والجديد، ذلك أن في القديم ما يبقى جديدًا، وفي الجديد ما يبقى قديمًا.

بـ- هجرة العقول: يعرف العالم الإسلامي نزيفًا متناميًا لعقوله التي تعتبر ثروته وعدة مستقبله، وإذا كانت هناك عوامل جاذبة تغري بهجرة هذه الكفاءات، فإن "كولن" يعتبر هذه الكفاءات مهجرة يدفعها وطنها الأصلي والوطن الغربي إلى الحرمان بحثًا عن وطن يمنحهم كرامتهم وعمق وجودهم، يقول "كولن": "إن وطن المستقبل يدفع بأبنائنا إلى الغربة والحرمان وفي أيديهم مشاعل العلم والعرفان".

جـ- العولمة والتكنولوجيا: تعتبر أكبر التحديات التي

hiragate.com

عمّقت المسافة بين مجتمع يملكها، وبين مجتمعات تعاني فقرًا فكريًّا مدقعًا، لذلك ظل السؤال الجوهري الباسط ظلاله في كل كتاباته هو، كيف يمكن للتكنولوجيا أن تحقق الرفاهية والمعرفة معًا لجميع سكان الأرض؟ يجيب "كولن" بأنه: "لا يعد عصر التكنولوجيا والعلوم الذي نعيش فيه نورًا وضياءً للمجتمعات كلها، بل إنه عصر زاد من ظلام كثير من المجتمعات".

د- غياب القيم المقدسة والمعاني السامية في ثقافة ما يسمى عصر "جاهلية القرن العشرين": لقد أدت سيادة الأيديولوجيات المادية، والفلسفات العبثية، والغاية المادية للخدمات والمنتجات التي غزت أسواق العالم، إلى سيادة القيم المدنّسة في السياسة والثقافة والمجتمع على القيم المقدسة التي أضحت عند الكثير رمزًا لعصر الظلام والقِدَم، فقدت معها الحياةُ أسمى مبررات وجودها وهو المعاني السامية.

هـ- ومن التحديات التي تهدد السلم الحضاري للمجتمعات الإسلامية وتعطل إرادته وفاعليته "فقدان المناعة": فقد فقدت المجتمعات الإسلامية بفعل اغترابها واستعمارها، وبفعل تبعيتها وتقليدها للغالب كما يقول "ابن خلدون"، مقومات هويتها، يقول مالك بن نبي: "لكي لا نكون مستعمرين، يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار". وفي هذا المنحى يدعو "كولن" إلى الوعي بالذات وبمقوماتها، والتحرر من "القابلية للاستعمار".

٣- الوعي بالاحتياجات

في تحليله للمشهد الحضاري في العالم الإسلامي، يضع كولن يده على مكامن الداء التي تعوق مشروع النهوض الحضاري المرتقب، منها ما يلي:

• حاجة العالم الإسلامي إلى تخطيط إستراتيجي يضع المناهج والمشاريع المستجيبة للاحتياجات والأولويات، والمصوغة بعقليات متخصصة لإعداد أجيال بانية لأمة عظيمة يقول: "لأننا كأمة لا بد لنا اليوم أن نعرف البرنامج والخطط التي نسير بها في المستقبل".

• حاجة الأمة اليوم إلى فهم واعٍ لقوة الإسلام وتأثيره وعناصر ديمومته الأبدية؛ فالإسلام اليوم ينقصه المسلمون المفعّلون لتعاليمه السامية وقيمه الحضارية ومبادئه الإنسانية، ومن ثم تبقى الحاجة ماسة إلى تحرير العقول والأفهام -سواء لدى المسلمين أو غيرهم- من سوء الفهم، ومن الصور النمطية المسيئة جهلاً أو تجاهلاً للإسلام.

• تفعيل رسالة التربية والثقافة لتحصين الذات المسلمة، وتأهيلها للإبداع والقيادة. فما دامت الثقافة والتعليم لم يصبحا كالهواء والماء في حياة المجتمعات الإسلامية؛ فإنها ستظل بعيدة عن قطار التقدم والتطور.

• الاستقلال من الذات المستلبة التي فقدت مقومات هويتها، ومن الذات الأخرى المستلبة.

ختامًا

في تأملنا لخريطة وعيه الإصلاحي؛ نجد أن فكر الأستاذ فتح الله كولن يحمل تساؤلات قلقة التقى فيها مع رواد الحركات الإصلاحية والتنويرية منها: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ ما هي شروط النهوض الغائبة في وعينا وسلوكنا؟ كيف نحافظ على ثوابتنا مع معاصرتنا؟ مستندًا في الإجابة عن هذه التساؤلات إلى المرجعية الدينية النابعة من "القرآن والسنة واجتهادات السلف الصالح" كما يقول ملتقيًا في ذلك مع محمد عبده الذي قال: "ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، هما تحرير العقل من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة من خلال مصدرين هما القرآن والسنة قبل ظهور الخلاف"، كما يستفيد من المرجعيات الصوفية في تربية النفس على القيم الروحية، والثقافة الأنثروبولوجية المؤكدة لسعة علومه، وشمولية رؤيته لدور الثقافة والإنسان ومعنى الوجود.

وفي البحث عن هذه الحقائق ظل محمد فتح الله كولن طوال حياته وفي مناطق فكره، رحالة في أعماق النفوس والحضارات، وفي عمق الأزمة الماضوية والحاضرة والمستقبلية، يضيء الدروب المظلمة، سواء في داخل الذات أو الخارج، فهو"فارس يجيد الانطلاق في أعماق الذات المؤمنة، كما يجيد الانفتاح على كل البشرية". ■

(*) المدير السابق للأمانة العامة لاتحاد جامعات العالم الإسلامي التابع لـ"إيسيسكو" / المغرب.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
أحمد شحاتة
ياووز يالمز

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

ALGERIA
hiramagazinealgerie@gamil.com

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

إن الفتح الحقيقي في عصرنا
لا يتحقق إلا بالوصول إلى قلوب الناس
وإحيائها بقيم الإسلام السامية.

مركز التوزيع: **دار النيل للنشر** | sales.daralnile@gmail.com
مراكز البيع الالكتروني: **www.neelwafurat.com** | **www.jamalon.com**
Tel.: +202 25379391 Mobile: +2 01023201002 - +2 01023201001
www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

الماضويّون

ماضيًا صرتم، وفي الأمسِ غرقتم،
وعيونَكم عن الواقع أغمضتم،
وركبتم خيول الخيال،
فما لم تدركوا روح العصر وحقيقته،
فلا مستقبل لكم ولا استقلال،
فالكيّس من كان أمسه شقيق يومه،
ويومه رفيق غده،
فتلك هي الحكمة الكبرى.

* * *

ISSN 2357-0229
58
9 772357 022004
www.hiragate.com